روسيا القيصرية في عهد ايفان الرابع ١٥٣٣ -١٥٨٤م

م. د نادية جاسم كاظم علي الشمري

جامعة بابل

مركز بابل للدراسات الحضارية والتاريخية

البريد الإلكتروني Email : nadiajasem654@gmail.com

الكلمات المفتاحية: ايفان الرابع ، السياسة الخارجية، علاقات دبلوماسية ، روسيا القيصرية ، الاصلاحات الداخلية ، العنف .

كيفية اقتباس البحث

الشمري ، نادية جاسم كاظم علي، روسيا القيصرية في عهد ايفان الرابع١٥٣٣ -١٥٨٤م، مجلة مركز بابل للدراسات الانسانية،٢٠٢١،المجلد:١١ ،العدد:٢ .

هذا البحث من نوع الوصول المفتوح مرخص بموجب رخصة المشاع الإبداعي لحقوق التأليف والنشر (Creative Commons Attribution) تتيح فقط للآخرين تحميل البحث ومشاركته مع الآخرين بشرط نَسب العمل الأصلي للمؤلف، ودون القيام بأي تعديل أو استخدامه لأغراض تجارية.

مفهرسة في Indexed
IASJ

مسجلة في Registered
ROAD

Tsarist Russia during the reign of Tsar Ivan IV 1533-1584 AD

Dr .Nadia Jasem Kadhim Ali Al-Shammari
University of Babylon
Babylon Centre for cultural and historical Studies

Keywords : Ivan IV, Foreign Policy , Diplomatic Relations, Tsarist Russia , Internal reforms, Violence.

How To Cite This Article
Al-Shammari, Nadia Jasem Kadhim Ali, Tsarist Russia during the reign of Tsar Ivan IV 1533-1584 AD, Journal Of Babylon Center For Humanities Studies, Year :2021,Volume:11,Issue 2.

This is an open access article under the CC BY-NC-ND license (http://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/

This work is licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International License.

Abstract

Tsarist Russia in the reign of Ivan IV1533-1584 AD

According to the study, Russia's basic problem is that it is isolated and far from international trade and navigation. It has no coasts except on the Arctic Ocean, an ice sea whose waters are frozen most of the year, and the Baltic Sea and the Black Sea are closed. The sea and find an external outlet by controlling the sea especially the Baltic Sea, the Caspian Sea and the Black Sea in order to reach the warm waters.

Emperor IV showed a remarkable ability as a qualified and qualified statesman, distinguished by his knowledge and insight, and with remarkable talent, perseverance and perseverance in fighting the enemies of the Russian state, especially Sweden and Poland, which controlled the Baltic Sea and keen on its political and economic interests. His military plans and expansionist policy to open a window to his country overlooking the seas to rid his country of geographical isolation.

The study revealed that The Tsar IV had achieved political success as a result of his overthrow of the vast fertile land adjacent to the Volga Kazan and Astrakhan. The Volga River has become a purely Russian channel, A new impetus to the development of the Russian state.

The Tsar followed the policy of violence and cruelty and killed and looted all the cities he passed through. He stripped the clerics of all their privileges and preferred a certain class to another class without taking into account the demands of the Russian society and restricting their political and cultural freedoms. Most of the cities he took over to strengthen the military establishment at the expense of others, which led to the spread of hatred, hatred and hostility among his people, was supposed to make all his efforts to achieve solidarity and love among the classes of Russian society, because solidarity and meet the needs of the people of his country leads to the sovereignty a Security, stability and unity will lead to breaking the thorn of enemies in the territory of the Russian state.

The study explained that The study showed that the Russian Tsar made all his efforts to realize Russia's political ambitions. The 25-year-old Livonian War (1558-1583) fought for an outlet to the Baltic The 15-year-old Leviticus War (1558-1583) was used to secure access to the Baltic Sea. The Russians lost their land in the Gulf of Finland, and it turned out that the Russian state was not there at the time. And Russia will continue its wars against the enemies to complete its expansion plans towards the sea and to establish diplomatic, political and economic relations with the countries of the world.

الملخص

اوضحت الدراسة ان مشكلة روسيا الاساسية بحكم موقعها الجغرافي انها معزولة وبعيدة عن طرق التجارة والملاحة العالمية لا تملك سواحل بحرية الا على المحيط المنجمد الشمالي وهو بحر جليدي تتجمد مياهه معظم ايام السنة ، وعلى بحر البلطيق والبحر الاسود وكلاهما مغلقان لذلك اختطت روسيا سياسة خارجية الانفتاح على البحار وايجاد منفذ خارجي من خلال السيطرة على البحار لا سيما بحر البلطيق وبحر قزوين والبحر الاسود من اجل الوصول الى المياه الدافئة .

اظهر القيصر ايفان الرابع مقدرة مشهودة كرجل دولة مؤهل وقدير ، امتاز بسعة الاطلاع والاحاطة بخفايا السياسة وبمواهب مشهودة ومثابرة واصرار في محاربة اعداء الدولة الروسية ولا سيما السويد وبولندا التي تسيطر على بحر البلطيق والحرص على مصالحها السياسية والاقتصادية واهتم بتقوية الجيش وتسليحه بالاسلحة النارية من اجل تنفيذ مخططاته العسكرية وسياسته التوسعية لفتح نافذة لدولته تطل على البحار لتخليص دولته من العزلة الجغرافية .

كشفت الدراسة ان القيصر ايفان الرابع حقق نجاحا سياسيا نتيجة استيلائه على الاراضي الواسعة الخصبة المتاخمة للفولغا قازان واستراخان ، وبذلك اصبح نهر الفولغا من منبعه الى مصبه قناة روسية بحتة تسهل الوصول الى بحر قزوين ومهدت الطريق للروس لاحتلال ما وراء الاورال، واهم طريق تجاري لموسكو، الامر الذي اعطى دفعة جديدة لتطور الدولة الروسية .

اتبع القيصر ايفان الرابع سياسة العنف والقسوة وقام بقتل ونهب كل المدن التي مر بها وجرد رجال الدين من جميع امتيازاتهم ورجح طبقة معينة على طبقة اخرى ، دون مراعاة مطاليب افراد المجتمع الروسي وقيد حرياتهم السياسية والثقافية ما يهمه سوى جمع المال بأية وسيلة كانت لا سيما وجود مواطنين روس في معظم المدن التي استولى عليها ، لتقوية المؤسسة العسكرية على حساب الاخرين ، مما ادى الى بث التفرقة والحقد والعداوة بين ابناء شعبه ، كان من المفروض ان يبذل جميع مساعيه من اجل تحقيق التضامن والمحبة بين طبقات المجتمع الروسي ، لان التضامن وتلبية احتياجات ابناء دولته يؤدي الى سيادة الامن والاستقرار وتحقيق الوحدة تقود الى كسر شوكة الاعداء الطامعين في اراضي الدولة الروسية .

بينت الدراسة ان القيصر الروسي بذل جميع مساعيه من اجل تحقيق طموحات روسيا السياسية فقد خاض الحرب الليفونية التي استمرت خمسة وعشرين عاما (١٥٥٨-١٥٨٣م) للحصول على منفذ الى بحر البلطيق كانت حصيلتها فقدان الروس اراضيهم التي تطل على خليج فنلندا ، واتضح ان الدولة الروسية لم تكن آنذاك على درجة من القوة كافية لتحقيق نجاحا سياسيا ضد تجمع الدول الاوروبية ضدها ، فضلا عن خيانة القادة العسكريون الروس في ساحات الحرب الذين تركوا القيصر وانحازوا الى عدوه وازدادت كراهيتهم للسياسة الاستبدادية المطلقة للحكومة القيصرية .

واستمرت روسيا بجهود القياصرة وقادتها وشعبها تواصل حروبها ضد الاعداء لتحقيق طموحاتها السياسية وتنفيذ مخططاتها التوسعية باتجاه البحار للتخلص من العزلة الجغرافية ، وتعزيز علاقاتها الدبلوماسية والسياسية والاقتصادية مع دول العالم .

المقـدمة

تقتضي الضرورة مواصلة الاهتمام بالكتابة عن عمالقة السياسة من الذين أثروا في أحداث تاريخ روسيا وحفظ اسم بلاده وصاغ له اسماً في التأريخ بين القياصرة الروس ألا وهو ايفان الرابع الملقب (ايفان الرهيب) الذي سيطر الى حد كبير على صياغة الشؤون العامة ومقاليد إدارة الحكم في روسيا.

ليست مهمة الكتابة عن ايفان الرابع يسيرة كما قد يظن البعض ، بل إنها مهمة في غاية الصعوبة والتعقيد ، يقع الباحث فيها تحت وطأة الاختيارات والمواقف المختلفة لأن المدة الزمنية التي شملها موضوع البحث كانت مليئة بالأحداث السياسية ، وتباين المواقف التي يتخذها القيصر في كثير من الاحيان ولا سيما بتنفيذ سياسته التوسعية باتجاه الشرق والغرب ، وهذا يتطلب منه الاصطدام مع بولندا والسويد من اجل فتح نافذة لروسيا تطل على البحار بشكل يتيح لها الاتصال بالعالم الخارجي، واقامة علاقات دبلوماسية وسياسية واقتصادية مع الدول الاوروبية . وهذا يتطلب من الباحث أن يراجع مصادر متنوعة وبلغات مختلفة من اجل تقديم تحليلات منطقية مقبولة ونتائج فاعلة لتغطية جوانب مختلفة من الموضوع. ومن هنا جاء اختياري لموضوع روسيا القيصرية في عهد القيصر ايفان الرابع ١٥٣٣-١٥٨٤م.

وتنحصر أهمية الموضوع في أن الدراسات السابقة لم تبحث موضوع روسيا القيصرية في عهد ايفان الرابع ١٥٣٣-١٥٨٤م ، وغالبا ما تركز على جوانب تاريخية وسياسية تضفي عليها استمرارية الأحداث، لذا أصبح من الضروري تخصيص دراسات علمية مستقلة جادة وتفصيلية عن تلك الشخصية التي تسمح باستنباط الرؤى المرتبطة بطبيعة العلاقات السياسية مع الدول الاخرى وكيف انتهجت سياسة خارجية لفتح منافذ بحرية تحررها من العزلة الجغرافية ولا سيما بحر قزوين وبحر البلطيق ؟ وهل كان للاضطرابات الداخلية انعكاسات على توجهات سياسة روسيا الخارجية وتوسعها السياسي نحو الشرق والغرب ؟ وماهي المشاريع الوحدوية التي تبناها القياصرة الروس في النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي ؟ وماهي الاصلاحات التي أجرتها الحكومة الروسية للنهوض بها التي كان لها تداعياتها على علاقاتها مع دول اوروبا الغربية ؟ وماهي السياسة الخارجية التي انتهجها القيصر ايفان الرابع للتوسع نحو قازان واستراخان ؟ وهل حقق نجاحاً سياسيا وعسكرياً في ضم هذه المناطق ؟ وكيف انتهج القيصر سياسة توسعية نحو الغرب لفتح نافذة بحرية نحو بحر البلطيق ؟ وماهي الحجة والذريعة التي افتعلها من اجل التدخل في شؤون دول البلطيق ؟ وكيف اعلنت روسيا الحرب الليفونية على بولندا وليتواتيا والسويد ؟ وماهي مراحلها ؟ وما هي اهم النتائج التي افرزتها هذه الحرب ومدى تأثيراتها على سياسة روسيا القيصرية الخارجية ؟

وطبقاً لذلك فقد قسم البحث الى ثلاثة مباحث تضمن المبحث الاول : الاضطرابات الداخلية وانعكاساتها على سياسة روسيا الخارجية ١٤٦٢-١٥٤٧م، والمبحث الثاني : الإصلاحات الداخلية في عهد القيصر الروسي ايفان الرابع في النصف الثاني من القرن

السادس عشر، والمبحث الثالث : التحديات الطبيعية واثرها في توجهات سياسة روسيا الخارجية في عهد ايفان الرابع نحو الشرق والغرب.

المبحث الاول

الاضطرابات الداخلية وانعكاساتها على سياسة روسيا الخارجية١٤٦٢-١٥٤٧م

ان الخطوة المهمة التي خطاها الروس في سبيل توحيد الاراضي الروسية كانت في عهد ايفان الثالث Ivan III (١٤٦٢-١٥٠٥م) حيث كانت البلاد الروسية في بداية حكمه مجزئة سياسياً إلى اجزاء عديدة ، بعضها تحت الحكم الوطني والبعض الآخر تحت الحكم الأجنبي، وكانت موسكو تسيطر على الجزء الذي أصبح فيما بعد قلب روسيا الكبرى، والامارات الأخرى تحت حكم أمراء يتمتعون بالاستقلال على نحو ما، أما المناطق التي استوطنها الروس: روسيا الغربية، وروسيا الصغرى، فقد كانت خاضعة للبولنديين والليتوانيين، فقد صمم الامير ايفان الثالث على تحقيق طموحه السياسي بتوحيد جميع الاراضي التي كانت تخضع لروسيا الكييفية في ذروة قوتها، وذلك بوضعها تحت السيطرة الموسكوفية وقد عرف هذا المشروع باسم (تجميع الاراضي الروسية) [١]. فقد انجز ايفان الثالث جزء من هذا المشروع الوحدوي، تمثل بتجهيز حملة عسكرية على نوفغورد Novgorod التي كانت تعد من اقوى مركز تجاري في الأراضي الروسية ، اذ كانت تسيطر على طرق واسعة في شمال روسيا تمتد شرقاً في جبال الاورال، ومع أن نوفغورد كانت تفوق موسكو إقتصادياً إلا أنها كانت دون موسكو من حيث القوة العسكرية، وبذلك وجد ايفان الثالث مبرراً للهجوم عليها، واستطاع ان يحولها عام ١٤٧١م إلى امارة تدفع له الجزية، وبعد سبع سنوات ضم جميع أراضيها اليه التي كانت ليتوانيا [*] Lithuania تطالب بها [٢].

ورغم هذا النجاح السياسي الذي حققه ايفان الثالث الا انه لم يكن مطمئناً على مستقبله السياسي لوجود التفوذ المغولي في روسيا، فقد رأى ان التحرر من المغول أصبح امراً يسيراً ،اذ لم يبق لهم سوى ثلاثة مراكز في (سراي وقازان والقرم) فقرر ان يضرب كلا منها بالأخرى حتى اطمأن انها لن تتحد ضده، ومن اعظم اعماله تغلبه على ما بقي من نفوذ المغول عندما اكتشف ضعفهم وتفرق كلمتهم، امتنع عن دفع الجزية لهم (وكانت الجزية آخر مظهر من مظاهر النفوذ المغولي في روسيا)[٣] . فعندما وصل رسل الخان المغولي احمد الى موسكو يحملون وثيقة لجمع الاتاوة افزعهم ما رأوه حينما مزق الامير ايفان الثالث هذه الوثيقة والقاها ارضاً وأخذ يطوءها بقدميه قائلاً : " قولوا لخانكم ما حدث لوثيقته ، وأنه سيحدث له نفس الشيء اذا لم يترك الأرض الروسية بسلام "[٤].

وعاد الرسل مسرعين بخيولهم الى بلادهم واخبروا الخان احمد بما حصل، الامر الذي ادى ان يعقد خان دولة الاورطة الذهبية[*] Golden Hordel اتفاقية مع كازيمير الرابع Kasemir IV ملك بولندا وليتوانيا، ثم طلب الخان احمد من ايفان الثالث الاعتراف بسيادته رسمياً، لكن الأخير رفض ذلك، ولم يكن أمام الخان من بديل سوى استعادة سلطته بالقوة ، فقام بتجميع قوات كبيرة وقادها الى موسكو، قاصد ان يعاقب الشعب الروسي بقسوة وان يخضعه من جديد، واستطاع ايفان الثالث ان يعقد حلفا مع امارة شبه جزيرة القرم المغولية المعادية للقبيلة الذهبية، وفي عام ١٤٨٠م تركزت قوات احمد عند نهر اوكا Oaka ، ومن ثم انتقلت نحو اعالي هذا النهر واتجهت الى نهر أوغرا Augera ، الذي كان يشكل الحدود بين موسكوفا وليتوانيا، وكان جيش كازيمير الرابع مستعدا للانضمام اليه، وقد صدّ الروس محاولات عبور المغول ضفة نهر اوغرا ، غير ان الوضع ازداد تعقيدا ،اذ هجم الفرسان الليفونيون على اراضي بسكوفPskov ، واشتد النزاع بين ايفان الثالث واخوانه، وفي موسكو رأى بعض البويار[*] Boyars ان من الضروري عقد الصلح مع الخان احمد مهما كلف الامر، وتنازل ايفان الثالث لاخوانه فاستطاع ان يطفيء نيران الاضطرابات الاقطاعية التي اشتعلت، واحتلت قوات الروس الموحدة مواقع حصينة الى جنوب موجايسك Mujesic، وهجم تتر القرم على أراضي كازيمير الرابع ولم يحصل الخان احمد على مساعدة من الامير الليتواني حيث انشغل لصد هجوم جاراي Garia حليف ايفان الثالث على المقاطعات الاوكرانية التابعة لغراندوق ليتوانيا مما جعل كازيمير الرابع يوجه انتباهه لصد هذا الهجوم ووجه أخا منجلي جاراي الذي دخل في خدمة ايفان الثالث ومعه عشيرته وكتيبة من الفرسان المسكوفيين للقيام بغارة على معسكر الخان احمد القريب من ساراي وقد فرضت أخبار الغارة على الخان ، ليأمر بالانسحاب الفوري لجيوشه فيما انسحب في الوقت ذاته الجيش الروسي وبسرعة الى موسكو عام١٤٨٠م ، وفي الوقت نفسه هوجمت القبيلة الذهبية من قبل خان تيومن صديق ايفان الثالث مدعماً بقبيلة نوقاي، وقتل الخان احمد في خيمته، وبذلك انتهت القبيلة الذهبية وحل محلها خانية استراخان Astrakhan، وهي على أية حال كانت ضعيفة ولا تشكل أية تهديد لموسكو، وعقب وفاة احمد وجه ايفان الثالث اهتمامه الى شؤون خانية قازان حيث برز صراع بين الخانات المغولية من اجل مقاليد السلطة ، الامر الذي أدى الى ضعف المغول وتفرق كلمتهم، وهكذا استطاع ايفان الثالث تحرير روسيا من نير خانات المغول عام ١٤٨٠م الذي دام قرنين ونصف القرن تقريبا، وكان ذلك نصرا تاريخياً عظيماً ضمن استقلال الدولة الروسية وهيأ الظروف لمتابعة تطورها سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وثقافياً[٥].

يتضح مما سبق بذلت روسيا جميع مساعيها من اجل تنفيذ سياستها الخارجية بانتهاج الساسة الروس ولا سيما القيصر ايفان الثالث سياسة تقوم على اساس دعم المشاريع الوحدوية وتجميع الاراضي الروسية وطرد الليتوانيين منها ونجحت روسيا تحقيق ذلك ، ورغم هذا النجاح الا ان القيصر الروسي لم يكن مطمئناً على استقرار دولته لوجود النفوذ المغولي ، فصمم على اتباع سياسة خارجية بتحرير بلاده من السيطرة المغولية وعقد حلفا عسكريا مع شبه جزيرة القرم المغولية المعارضة مستغلا الصراع بين الخانات المغولية من اجل تسلم مقاليد الحكم ، الامر الذي أدى الى ضعفهم وتفرق كلمتهم ، وبذلك استطاعت روسيا القيصرية طرد المغول وابعادهم عن أراضيها عام ١٤٨٠م الذي دام قرنين ونصف تقريباً.

كتب فردريك انجلز Frederick Engels قائلاً : " كان تحرر روسيا من السيطرة المغولية الذي دام قرنين ونصف القرن تقريبا نتيجة العمل البطولي المستمر ، ومما سهل هذا التحرر تحلل الاورطة الذهبية في القرن الخامس عشر الى دويلات الخانات الاقطاعية المتفرقة _ دويلات القرم واستراخان وقازان وسيبيريا Siberia التي اشتد التنافس فيما بينها ، وفي دويلة قازان انتفض شعباً منطقة الفولغا (التشوفاشيون والموردفيون) للتحرر من الخانات المغولية "[٦].

توفي ايفان الثالث عام ١٥٠٥م بعد أن ترك للروس دولة ثابتة الاركان ، وان بقيت محجوبة عن بحر البلطيق والبحر الاسود يحجزها عن الاول السويد والبولنديون ، ويفصلها عن الثاني تتار القرم . فخلفه أبنه فاسيلي الثالث Vasily III (١٥٠٥-١٥٣٣م) الذي يعد من ابرز رجال الدولة في روسيا الإقطاعية ، وكان يتصف بعقل عبقري ورؤيا سياسية واسعة ، وحافظ على الاستئثار بالنفوذ وانتزاع السلطة من يد الاشراف ، وفي عهده تعززت العلاقات الروسية-الأوروبية ، وأصبحت موسكو معروفة لدى دول أوروبا الغربية [٧].

توفي فاسيلي الثالث عام ١٥٣٣م نتيجة لالتهاب جرح أصيب به أثناء الصيد ، فتولى العرش الروسي بعد وفاته أبنه ايفان الرابع الذي عرف في التاريخ باسم ايفان الرهيب Ivan The Terrible (١٥٣٣-١٥٨٤م) لأنه مارس أبشع أنواع القمع والقتل الجماعي ، وكان يقتل الناس بمجرد شبهة تحوم حولهم ، وأمر اتباعه بتعليق أحد ابطال المغول ونبلائهم مع ابنه الصغير على خازوق ، كونهم عارضوا أفكاره ، واشعلت النيران من تحتهم ، وامر بغطسهم تارة في مياه جلدية وأخرى بمياه تغلي حتى تفتت اللحم وتناثر عن اجسادهم ، وفي مذبحة مروعة قام إيفان بتقطيع رؤوس بعض النبلاء وألقى بجماجمهم على الطرقات ، وتفنن الامير بالبطش، بل يرمي بأعدائه طعاماً للحيوانات الضارية ، او الكلاب التي تجوّع عمداً، ثم يختلي في مقره الروحي الصيفي اسكندرومنسك Alexandrominsk ، التي تبعد ستين ميلا عن موسكو ، وشرع

بممارسة فرائضه الدينية وهو مخلوق جمع كل نقائص النفس البشرية وشذوذها[٨]. واحتاط ابوه فاسيلي الثالث وشكل قبل وفاته مجلساً للوصاية يتألف من سبعة اشخاص بعضهم من اقرباء زوجته الينا غلينسكايا Elena Glinsky ، وبعضهم الآخر من اعضاء دوما البويار ، وأصبحت غلينسكايا تحكم البلد بالاستناد الى هذا المجلس نيابة عنه[٩].

كان اول اجراء اتخذته حكومة غلينسكايا اعتقال عم ايفان الرابع يوري Yuri الذي خشيت من احتمال مطالبته بالعرش ، وقد توفي هذا في السجن من الجوع بعد ذلك بثلاث سنوات، اما أخوه أندريه Andre عم ايفان الآخر فقد أجبر على أن يعقد مع الأمير الكبير أتفاقا سوى الأمر بينهما مؤقتاً ، لكن العلاقات بين الاثنين توترت ووصلت إلى حد القطيعة والمواجهة الصريحة ، فترك اندريه مدينته التي كان يحكمها على أمل أن يجد مساندة من الدفوريان [*] فيها فأرسلت حكومة غلينسكايا قواتها لملاحقته ، وحين وجد أندريه أنه لا يستطيع مواجهة هذه القوات وافق على القدوم إلى موسكو لأجراء مفاوضات مع الحكومة وهناك أعتقل، ثم توفي في السجن وتعرض أتصاره للأعدام والنفي ،كما أعدم ثلاثون من دفوريان نوفغورد كانوا قد انحازوا إليه وعلقت جثثهم على الطريق المؤدي من موسكو الى نوفغورد ، ليس هذا فحسب بل أن عم الاميرة غلينسكايا نفسه ميخائيل لفوفتش غلينسكيMikhail Levovich Glinsky أتهم بمحاولة الاستيلاء على الحكم لأنه أدان سلوك الاميرة وسياستها فألقي القبض عليه وسجن ومات في السجن من الجوع أيضاً [١٠].

وترعرع الامير الروسي في ردهات الكرملين Kremlin في كنف والدته غلينسكايا ، وتوفي والده وعمره ثلاث سنوات، واصبحت رئيسة للدولة الروسية عام ١٥٣٤م ، وانتهجت سياسة في المجال الداخلي تمثلت بشكل خاص ببناء مدن جديدة وتحصين المدن القديمة ، ومن اثار هذه المرحلة جدران كتاي غورد Kity –Gorod [***] التي بناها المعماري بتروك مايكل Petroche Mical ، كما أجرت اصلاحاً ادارياً هدفه تقوية الحكم الذاتي المحلي واصلاحاً مالياً أوجد نظاماً نقدياً موحداً حتى اصبح الروبل المسكوفي أساس العملة الروسية على الرغم أن عملة نوفغورد المسماة (دنكا) Dinka[****] ظلت متداولة [١١].

لكن السياسة الخارجية لحكومة غلينسكايا لم تكن موفقة ولا سيما في المجال العسكري فالحرب مع ليتوانيا التي كانت تسعى للاستيلاء على الأراضي الروسية انتهت بخسارة روسيا واستيلاء ليتوانيا على مناطق روسية جديدة ، بحيث أصبحت الحدود معها لا تبعد عن موسكو من جهتها الغربية إلا بضعة عشرات الكيلومترات[١٢]. وتوترت في هذه المرحلة علاقات روسيا

مع خانية القرم لدرجة أن خان القرم أعلن حربا على روسيا وصل فيها الى موسكو واحل الدمار فيها ونهب خيراتها[١٣] .

وبعد أربع سنوات اغتيلت غلينسكايا بالسم، فنشأت الخلافات بين امراء الاقاليم المستقلة واتباعهم من الاعيان –البويار وبدأ الاقطاعيون الكبار يخونون الدولة ويهربون الى ليتوانيا ، وكانت هذه الخلافات لصالح المغول ، فهاجموا الأديرة والكنائس ، وقتلوا الرهبان والراهبات وكان ايفان الرابع في الثالثة عشرة من عمره ، فانطبعت في ذهنه هذه المجزرة التي جعلته يحسم أمر المغول فيما بعد[١٤].

كان الامير الروسي منزعجا من السلوك السيء لكبار البويار ، والتباين الكلي لخنوعهم الظاهري أمامه في مناسبات الدولة ،مثل استقبال سفراء أجانب وعند جلوسه على العرش في ثيابهم البهية ، وقد علم إيفان أن البويار كانوا طلقاء اليد في السلطة واستولوا على القصر على كل ما طاب لهم من الجواهر والاشياء الثمينة ، وكان الرجل الوحيد الذي يثق به ويحترمه في تلك الايام هو رئيس الكنيسة الروسية المطران ماكاريMakuhari ، وبناء على توجيه المطران قرأ إيفان الرابع مختلف الكتب التاريخية واللاهوتية التي وجدها في اللغة السلافية ، وكان ماكاري قد بث في نفسه أفكار المنزلة العظيمة ومسؤوليات الحاكم المسيحي[١٥] .

أصبح البويار بعد وفاة الاميرة غلينسكايا يتصرفون بشؤون الدولة الروسية على هواهم وثار بينهم آل شويسكي وآل بيلسكي وآل غلينسكي نزاع شديد عانت منه الدولة كثيرا ، واصبح ايفان الرابع بعد وفاة أمه يتيم الأب والأم وهو في الثامنة من عمره فوضع هو واخوه يوري تحت رعاية البويار الذين كانوا يسيئون معاملتهما لدرجة أنهما كانا على حد تعبير ايفان نفسه يعانيان في المأكل والملبس ومن إساءات معنوية كثيرة ، فقد كان يتألم كثيراً حين يرى الامير شويسكي مسترخياً في غرفة نوم الأمير الكبير مستنداً بمرفقه على السرير الذي توفي عليه أبوه [١٦] .

إن استيلاء اليويار على اموال وممتلكات الامير والنزاع الدامي بين عوائلهم المختلفة بحيث ان بعضهم لم يكن يتورع خلال النزاع عن اهانة الامير والقبض على خصومه ، جعله يعدهم خونة وسراق لأموال الدولة وربى في نفسه القسوة والحقد وحوله إلى شخص متهور ، لكن على ما يبدو لم يخل من جانب ايجابي إذ يقال أن هذه المعاملة القاسية التي تعرض لها ايفان الرابع في طفولته وصباه جعلت له ميول واسعة نحو قراءة الكتب والحصول على معرفة وافية بالتاريخ والقانون وغير ذلك من المعارف التي جعلته يترك أثراً في عصره [١٧].

برزت في موسكو في عهد تسلط البويار كل المساوئ التي تميز التجزئة الاقطاعية ، ولم يكن ايفان الرابع الصغير مؤهلاً بالطبع لإدارة الدولة ، كما لم يكن اخوه مؤهلاً لذلك لأنه كان

صغيراً ايضاً وضعيف العقل ، ولهذا أصبح الحكم بأيدي البويار الذين برز منهم بيلسكي والأمراء من أسرة شويسكي ، واشتد بين هؤلاء خصام شديد وفي عام ١٥٤٢م قام آل شويسكي بالاستناد إلى ابناء البويار بانقلاب وأعتقلوا الامير بيلسكي ثم قتلوه في السجن[١٨].

لم يستمر حكم آل شويسكي طويلا ففي عام ١٥٤٣م أظهر ايفان الرابع بأساً شديداً وعزماً اكيداً ليستأثر بالنفوذ والسلطان عندما بلغ الثالثة عشر من عمره، أمر حرسه الخاص بالقبض على شويسكي فقدم حيّا للكلاب طعاماً ، وكان هدفه من هذا العمل الفظيع إلقاء الرعب في قلوب الأشراف لئلا أحد منهم أن يشاركه في السلطان[١٩] .

عمد ايفان الرابع حين بدأ بممارسة الحكم بشكل مستقل الى اعلان نفسه قيصراً وقد بلغ السابعة عشرة من عمره في ١٦ كانون الثاني ١٥٤٧م ، ففي صبيحة هذا اليوم ارتدى الامراء وكبار الموظفين في روسيا والبويار ثيابهم الرسمية من القماش المذهب واجتمعوا على عتبة القصر وحول ابوابه وتلقى مرشد إيفان رئيس كهنة كاتدرائية الصعود من يدي الغراندوق صفيحة ذهبية وضع عليها صليب عجائبي كبير والتاج ومعطف التكريس ، ورفع كبير الكهنة هذه الشعارات عاليا وتوجه مباشرة الى الكاتدرائية يتبعه الغراندوق محفوفاً بالنبلاء ورجال الدين وكانوا قد نصبوا في المعبد على ارتفاع اثنتي عشرة درجة عرشين يستطيع أن يراهما الجميع احدهما للدوق الكبير والثاني لـ ماكاري ، وقبل ان يضع ايفان رجله على اول درجة قام بالسجود امام كل واحدة من الايقونات ، وانشد الكورس نشيد السلام وقام ماكاري بمباركته ، وفي اعلى الدرجات انتصب ايفان مع الاخير والى الارشمنديتات بالمعطف والتاج واعطوهما لـ ماكاري الذي رسم عليهما عدة اشارات للصليب ثم البسهما لإيفان داعياً الله بصوت عال أن يحمي هذا الداوود المسيحي بنصيحة الروح المقدس ، وبعد التتويج اخذ رجال الدين والنبلاء ينشدون ترتيلة سائلين للقيصر الصحة والسعادة والنعماء، ثم خرج إيفان من الكاتدرائية يمشي فوق سجاجيد من المخمل والدمقس والنبلاء يرشقونه بحفنات من القطع الذهبية ، وعاد الى قصره محاطا بكل بلاطه وعلى رأسه تاج القياصرة ، وانقض شعب موسكو عند ذلك على الكاتدرائية ينزعون عن العرش قطع القماش الحريرية ذكرى لهذا اليوم الجميل [٢٠]. وبعد أربع عشرة سنة أرسل إيفان الرابع الى بطريرك القسطنطينية طالباً مباركة حقه بلقب قيصر، فأعترف البطريركPatriarch [*] له [٢١].

كان الهدف من اعلان ايفان الرابع نفسه قيصراً رفع مكانة السلطة المركزية في الدولة الروسية ذلك أن الذين اطلق عليهم هذا اللقب هم الأباطرة البيزنطيون وخانات الاورطة الذهبية الذين يعدّون حكاماً اقوياء ومستقلين، ولهذا فأن اللقب الجديد جاء ليظهر استقلال روسيا التام عن الاورطة الذهبية والمساواة معها [٢٢].

يتضح مما سبق ان اللقب القيصري يؤكد طموحات الدولة الروسية لوراثة الامبراطورية البيزنطية ، وتأكيد قوتها أمام دول اوروبا الغربية وادارتها للعلاقات الدبلوماسية مع تلك الدول على قدم المساواة لا سيما وأن حكم البويار كان قد حط من هيبة سلطة الامير الكبير واضعف الدولة الى حد كبير ، فأريد للقب الجديد أن يعيد هذه الهيبة ، واتضح لنا ان وضع التاج على رأس الامير الروسي يرمز الى السلطة التي تخوله بصورة رسمية صلاحيات واسعة في ادارة الدولة للعلاقات السياسية والدبلوماسية مع الدول الاخرى وتخطيط سياستها الخارجية للارتقاء بها ورفع مكانتها الدولية وجعلها في مصاف الدول المتقدمة بصورة من شأنها تعزيز علاقاتها السياسية والاقتصادية والثقافية مع دول اوروبا الغربية.

أمر القيصر ايفان الرابع بأن ترسل إليه نخبة من العذارى النبيلات من مختلف انحاء المملكة وأختار منهن أنستاسيا رومانوفا Anastasia Romanova ، وتزوجها في ٣ شباط ١٥٤٧م وهي تنتمي الى أسرة قديمة من البويار مع أنها ليست من أسرة أمراء ، وكانت امرأة جميلة وذكية فاضلة ، وكان صوتها وتأثيرها مهدئا لزوجها ومن لقب أسرتها سوف يتحدد في المستقبل القريب لقب الاسرة الحاكمة [٢٣]. وكان القيصر يحب زوجته حباً عميقاً ، وقد احبها الشعب الروسي لرقّتها وتواضعها ورباطة جأشها ودورها في تهدئة هيجان القيصر ، وقد انجبت أنستاسيا خمسة أولاد هم: (إيفانوفيتش Ivanovic ، إيفانوفا Ivanova ، إيلينا Elena ، ديمتري Dmitry ، تيودور Theodore)، وبعد ذلك عاشت روسيا حالة من الغليان مما حدا ببعض المواطنين الى احراق انفسهم احتجاجاً وتعبيراً عن البؤس واليأس ، فقد قدموا (٧٥) خمسة وسبعين رجلاً من بسكوف شكاوى من حاكمهم إلى ايفان الرابع ، أهمل شكواهم ، ولم يكتف بذلك ، بل غضب منهم وسكب عليهم نبيذاً مغلياً وأزال شعر رؤوسهم ولحاهم بالنار وأمرهم ان يتعروا وينبطحوا على الأرض ، ولم ينقذهم إلا سقوط الجرس الكبير في موسكو ، فأسرع القيصر ليرى ماذا حدث ناسياً ضحاياه [٢٤].

يتضح مما سبق ان القيصر ايفان الرابع من اشد الحكام قسوة في تاريخ روسيا الحديث فقد انتهج سياسة القوة والعنف والقسوة المطلقة تجاه النبلاء الروس رجالا ونساءا وقام بتصفيات دموية بعائلات بأكملها ، والقى اللوم فيما تتعرض به الدولة الروسية على طبقة البويار النبيلة التي لم تكن تهتم سوى تلبية مصالحها وتوسيع نفوذها وعامل معارضيه بقسوة، فبعد موت والد القيصر قاموا النبلاء بقتل امه الوصية على العرش الروسي وقد لقي معاملة قاسية من البويار بعد ان اصبحوا اوصياء على العرش اضمر لهم الحقد وكان كره القيصر لهم عميقاً

ومتأصلاً وكان هدفه من هذا العمل الفظيع إلقاء الرعب في قلوبهم واضعافهم لئلا أحد منهم يطالب في السلطة.

كان لحكم البويار انعكاسات سلبية على الوضعين الداخلي والخارجي للدولة الروسية ، فعمال الأقاليم كاتوا ينهبون السكان بتعسفهم وأتاواتهم فقد قام حاكم بسكوف أندريه شويسكي Andre Schweiski بإعادة النظر بالدعاوى القضائية القديمة ، وفرض على الناس مبالغ كبيرة واجبر الحرفيين على العمل لديه بدون اجر ، وطلب من التجار تقديم الهدايا له ،وأفرغ البويار خزينة الدولة واستخدموا الأموال التي احتوتها في شراء أنصار لهم ، فساءت أحوال السكان وأخذوا يهربون الى اطراف الدولة النائية في محاولة منهم للتخلص من الظلم وحصلت انتفاضات في المدن ، لقد وصف أحد المعماريين الايطاليين في ليتوانيا الوضع في روسيا قائلاً : " لم يعد هناك أمير كبير أو أميرة كبيرة ، السيد الحالي ما يزال صغيراً ، والبويار يعيشون على هواهم ويمارسون تعسفاً شديداً ، وليس هناك عدل والعداء قائم بين البويار أنفسهم " [٢٥].

أثرت الانتفاضة الشعبية بموسكو في حزيران ١٥٤٧م تأثيراً كبيراً على الحوادث ، وكان الحريق الهائل الذي التهم موسكو كلها تقريبا سبباً لاشتعال الانتفاضة ، فلم يكن قد شاهدت المدينة مثل هذا الحريق ابدا الذي أحال العاصمة الى رماد وأدى الى وفاة (١٧٠٠) شخص[٢٦]. وقد اتهم آل رومانوف وآل شويسكي وبويار اخرون ، اقرباء القيصر من آل غلينسكي بتدبير الحريق واثاروا حقد الناس عليهم ، وقتل الثوار الامير يوري غلينسكي وكثيراً من خدمه، وتوجهت الجماهير نحو قرية فوروبوفو Vorobovo قرب موسكو وطالبوا بتسليم بقية آل غلينسكي ، لكن القيصر نكل بأبناء الشعب بقسوة ، واضطر ايفان الرابع تنحية آل غلينسكي عن الحكم [٢٧].

المبحث الثاني

الإصلاحات الداخلية في عهد القيصر الروسي ايفان الرابع

في النصف الثاني من القرن السادس عشر

كانت انتفاضة موسكو الى جانب الكثير من بقايا التجزئة الاقطاعية التي كانت ما تزال قائمة من اسباب تعقد الوضع السياسي في البلاد، فضلا عن ذلك ازداد دور الكنيسة واصبحت تحتل مركزاً استثنائياً في حياة المجتمع الروحية وملكيتها لمساحات واسعة من الاراضي من الاسباب المباشرة التي حفزت القيصر ايفان الرابع القيام بجملة من الاصلاحات الادارية والعسكرية وهدفه من ذلك تقوية السلطة المركزية.

بدأت مرحلة الاصلاحات في شباط ١٥٤٩م بدعوة أول مجمع أقاليم شارك فيه نواب الدفوريان والكنيسة وأغنياء المدن ، وكان هذا المجمع مؤسسة مركزية لممثلي الفئات وهو مجلس

انعقد في روسيا ابتداءا من منتصف القرن السادس عشر حتى منتصف القرن السابع عشر ، ولم يكن للفلاحين الذين كانوا ملكاً خاصاً للأشخاص في ارسال ممثليهم إلى هذا المجمع ، وكنت مجامع الأقاليم تدعى للانعقاد لمناقشة قضايا الدولة المهمة فيما يتعلق بمناقشة القوانين وحل مسائل الحرب والسلم أو فرض الضرائب واحياناً لانتخاب القياصرة وغيرها من الأمور التي يعرضها القيصر ومجلس دوما البويار ، ومن ابرز هذه الاصلاحات صدرت مجموعة من القوانين عام ١٥٥٠م على الفلاحين تضمنت: الحكم بالإعدام حتى الموت على قاتل السيد والخائن وسارق الكنيسة وملقي الأشياء سراً للآخرين بغية اتهامهم بالسرقة ، ومشعل الحرائق والشرير، والاعتداء على الدفوريان ، وعلى توجيه الاهانة لوكلاء رؤساء القاعات والقصر ان يدفع لهم ما يقرره القيصر والأمير الكبير، وعلى من يهين التجار الأغنياء ان يدفع لهم خمسين روبلاً ، ومن يهين الباعة والحرفيين وجميع الناس المتوسطين ان يدفع لهم خمسة روبلات وعلى من يهين الفلاح الحارث وغير الحارث ان يدفع له روبلاً واحداً [٢٨]. هذه تضمن مكافحة الفساد في المحاكم والادارة ، وألغى الامتيازات الضريبية التي كان رجال الدين يتمتعون بها ، الأمر الذي عزز السلطة المركزية واضعف الأساس المادي للكنيسة [٢٩]. واستردت كل الأراضي المنقولة للكنيسة وغير الخاضعة للحجز ، والغيت كل الهبات التي منحت للكنيسة ، ولم يعد للأديرة حق حيازة أية ممتلكات دون موافقة القيصر ، وهدأ رجال الدين نوعاً ما عندما عين ايفان الكاهن سلفستر Sylvester مرشداً روحياً له ، واتخذ منه ومن الكسيس اداشيف Alexis Adachev وزيرين له ، وبفضل هذين المعاونين القديرين كان إيفان في سن الحادية والعشرين سيداً على مملكة تمتد من سمولنسك إلى الاورال ، ومن المحيط المتجمد إلى بحر قزوين تقريباً [٣٠]. وقد انشئت مؤسسة جديدة هي جمعية الأرض زيمسكي سوبور Zimsky Sobor التي تألفت من مجلسين يجتمعان معا كلما كان السوبور في انعقاد تام ، والمجلس الأعلى يتألف من بويار الدوما ، ومجلس الأساقفة ، والموظفين الكبار ، وجلس في المجلس الأدنى ممثلو الطبقة الارستقراطية ، والتجار ، وقد قصد من هذا المجلس سياسياً تكوين قوة مقابلة لنفوذ البويار في شؤون الدولة، وعن طريق قانون السوبور غيّر إيفان الرابع نظام الادارة المحلي برمته سنة ١٥٥٥م وحتى ذلك الحين كان القيصر قد عين حاكما لكل مقاطعة لجمع الضرائب ، ومنع الجريمة ، وبدلا من الراتب فقد خوّل الحاكم بتلقي الطعام وغير ذلك من التجهيزات من سكان المقاطعة طبقا لحصص معينة ، كثيراً ما كان يتجاوزها حتى أصبح يشكل عبئاً على الناس ، وفيما بعد ألغى الحكام ، واستلم الناس حقوق اختيار موظفيهم المكلفين بجمع الضرائب وواجباتهم

، واعتقال المجرمين ، والنظر في القضايا ، وقد صدّق السوبور أيضاً على مدونة جديدة للقوانين عُرفت (بمدونة القيصر) [٣١].

ومن الاصلاحات المهمة التي جرت في هذه المرحلة التدابير اللازمة التي أتخذت لتقوية الجيش وزيادة قدرته فقد ألغيت (المستنيشسفو Almstineishcvo) في اثناء العمليات العسكرية فكان لذلك اثر مهم في تقوية القوات المسلحة ، وشكل فوج مختار من الدفوريان تألف من(١٠٧٠) منهم تسلموا ضياعاً في المناطق القريبة من موسكو وأريد لهم أن يكونوا نواة لقوة من النبلاء تكون سنداً للسلطة ، وحددت تعليمات الخدمة التي صدرت لهذا الغرض واجبات هؤلاء ومساحة قطع الأرض التي تمنح لهم ، حيث حددت مساحة القطعة التي تمنح للواحد منهم بمئة ربع للحقل الواحد و (٣٠٠) ربع في ثلاثة حقول متفرقة ، وكان على الشخص الذي تمنح له هذه الأرض أن يقدم للحرب فارساً واحداً بسلاحه ودرعه عن كل (١٥٠) دسياتينا Desiatina [*] وفي الوقت نفسه تأسست القوات التي عرفت بـ (الرماة) مجهزة بأسلحة نارية على حساب الدولة ، وكانوا يتسلمون مقابل الخدمة التي يؤدونها أجوراً على شكل حبوب او نقود أو مساحة معينة من الارض ، وكان هؤلاء بخلاف قوات النبلاء يؤدون خدمة دائمة في اوقات السلم كانوا يعيشون في سلويودات Slobodates المدن ، حيث يؤدون الخدمة في بوابات المدن وعلى أسوار القلاع وفي الشوارع، وفي أوقات الفراغ يمارسون الحرف المختلفة ويتاجرون بما يصنعونه دون ان تفرض عليهم الضرائب[٣٢] .

اهتمت روسيا بالجيش الروسي اهتماماً كبيراً لأنه القوة الضاربة للأعداء ، وتمت تقوية المدفعية إلى درجة كبيرة ، حيث لعبت دور فاعل في حروب القرن السادس عشر، فظهرت مدافع القلاع والأفواج في الجيش التي استعملت في معارك الميدان ، وكان الصناع الروس يصبون هذه المدافع في المصنع الكبير في موسكو الذي سمي بـ (مصنع المدافع Factory) of Guns فأصبحت لروسيا قوة مدفعية هائلة لم تكن لأي ملك في أوروبا مدفعية جبارة مثل ما للقيصر الروسي ، وأصبحت القوات المسلحة تضم أقساماً هندسية تضطلع ببناء القلاع وأبراج الحصار المتنقلة وتفجير الألغام[٣٣].

أجرى الرادا المختار Rada Selected الذي ضم كلاً من المطران ماكاري ورجل الدين سلفستر Sylvester كاهن كاتدرائية بلاغوفشينسكي Blagofczynski في الكرملين والبوياري عضو الدوما ألكسي فيودوروفتش اداشيف اصلاحات جذرية في مجال الادارة المحلية التي ساعدت على تعزيز الحكم المطلق ، ففي السابق لم يكن خلفاء الأمير الكبير يستلمون مرتباتهم من الدولة ، بل كانوا يقتاتون على حساب الضرائب التي يجبونها من السكان ، وقد

الغي هذا القوت اثناء حكم القيصر ايفان الرابع ، واحيلت جباية الضرائب والاتاوات وإدارة المحاكم في الأرياف إلى عمدات الدوائر الريفية ، اما في المدن فإلى الرؤساء المنتخبين(**)، وكان الدفوريان ينتخبون من بينهم في عمدات الدوائر الريفية ، اما الرؤساء فكانوا ينتخبون من سكان المدن الأغنياء ، وازداد تأثير الدفوريان وأغنياء المدن في شؤون الإدارة المحلية ، وصار القيصر ايفان الرابع يحصل على مبالغ اكثر لسد نفقات الجيش الروسي وموظفي الدوائر ، وحل القادة العسكريون الذين تعينهم موسكو ويستلمون رواتبهم من خزينة القيصر محل المقتاتين ، الا أن الرشوة انتشرت في أجهزة الدولة ، فقد امتاز موظفو الدوائر بابتزازهم للأموال ، وكان الوكلاء والكتبة يماطلون في انهاء القضايا متعمدين لكي يبتزوا من صاحب القضية كل ما يملكه حتى معاقبة الموظفين الوقحين بالسوط في حالة استمرارهم في فرض الرشوة (٣٤).

تطورت ادارة الدولة المركزية بشكل ملحوظ في القرنين النصف الثاني من القرن الخامس عشر والسادس عشر ، فتحولت الى نظام كامل التي تقوم بإدارة شؤون الدولة العامة ، فكانت دائرة السفارات تدير السياسة الخارجية ، ودوائر الشؤون العسكرية والقناصة والمدفعية تدير شؤون الجيش ، وكانت دائرة الأرقاء تدير شؤون الفلاحين الأرقاء ، ودائرة الدخل الكبير تمارس جباية الضرائب ، وعندما التحقت دولة خانات قازان وسيبيريا انشئت دائرة قصر قازان ودائرة شؤون سيبيريا لإدارة هذين الاقليمين من أقاليم الدولة ، وكانت هذه الدوائر التي بلغ عددها في أواخر القرن السادس عشر عشرين دائرة، في الوقت نفسه هيئات قضائية للسكان الذين تشرف على ادارتهم ، لذلك كان رؤساء الدوائر يسمون قضاة(٣٧).

قام إيفان الرابع ببناء موسكو عاصمة الدولة الروسية، وقد أدهشت الدول الأوروبية بثرائها وجمالها وهي مليئة بالأبهة والفخامة والعظمة ، وعلى ارض الكرملين شمخت معابد حجرية قام فنانون موهوبون بزخرفة حيطانها وسقوفها، واعدّ الصنّاع الروس المهرة مصنوعات رائعة من المعدن والخشب والحجر ، وحتى الآن ما زال زوار الكرملين يشاهدون بإعجاب المدفع القيصري الضخم الذي صبه الصانع الروسي أندريه تشوخوف André Chokhov في القرن السادس عشر، وهو أثر رائع من آثار فن صهر المعادن في روسيا ، فهو يزن (٤٠) طناً وقصبته مزينة بنقوش مجسمة، وعند فوهة المدفع صورة القيصر فيودور ايفانوفيتشFyodor Ivanovich على حصانه ، وسعت دول أوروبا الغربية لتعزيز علاقاتها مع الدولة الروسية وإرسال سفراءها إلى موسكو (٣٨).

يتضح مما سبق ان الاصلاحات الاقتصادية لها دور فاعل في توجهات سياسة روسيا الخارجية فكلما وجدت روسيا أن إقامة علاقات مع أي دولة كانت سيعود عليها بالفائدة

تتحفز وتندفع أكثر نحو إقامة علاقات اقتصادية مع الدول الاخرى بغض النظر عما سوف تعكسه مثل هذه العلاقات ولو كانت هذه الدول ذات توجهات سياسية مختلفة . واتضح لنا ان الاصلاحات العسكرية التي اجراها القيصر ايفان الرابع لها دور بارز في توجيه سياسة روسيا الخارجية وتوسعها تجاه الشرق والغرب التي اوضحت قدرة الدولة على استخدام القوة العسكرية التي تملكها او ان تقوم بالتلويح بها وذلك بهدف تحقيق المصالح لسياستها الخارجية والدفاع عن أمنها وسيادة منطق القوة فإن من يريد هيبة ومكانة بين الدول عليه التسلح بمقومات القوة ليس عدواناً على أحد ولكن حماية لأمنه ومصالحه.

المبحث الثالث

التحديات الطبيعية واثرها في توجهات سياسة روسيا الخارجية في عهد ايفان الرابع نحو الشرق والغرب.

تمتلك روسيا مساحات شاسعة من الاراضي تمتد حتى قلب اوروبا وبحر الصين الجنوبي لكنها واجهت صعوبات عديدة منها انها لا تملك منافذ جغرافية سهلة للاتصال بالعالم الخارجي ، إضافة إلى كونها معرضة للنزاعات الحدودية مع الدول المجاورة لا سيما في الجهات الغربية والشرقية والجنوبية ، ولا يبدو آمنا من الناحية الجيوبولوليتكية سوى الفضاء الشمالي غير الآهل بالسكان والمتجمد بشكل دائم معظم فصول السنة .

امتاز الوضع الدولي لروسيا في القرن السادس عشر بالكثير من التعقيدات فخانية قازان وخانية القرم : وهما من بقايا الاورطة الذهبية كانتا تواصلان غاراتهما على روسيا وتحظيان خلال ذلك بإسناد من الدولة العثمانية ، لكن روسيا استطاعت أن تحقق مكاسب لا يستهان بها ، فقد اصبحت خانية قازان نتيجة للتوسع الروسي عام ١٥٥٠م محاطة بالأراضي الروسية من جهتين ، وكان فاسيلي الثالث قد قام في حينه بتشييد مدينة جديدة في أراضي تابعة لخانية قازان عند مصب نهر سورا Sora في الفولغا وسماها فاسيلسورك Vasilsorek، الأمر الذي جعل حدود الدولة الروسية تزحف نحو الشرق ، وكان الوضع على الحدود بين الدولتين خطراً لان سكان قازان التتار كانوا يقومون بغارات مفاجئة على المدن الروسية المتاخمة للحدود ويأخذون الأسرى ، فقد بلغ عدد الأسرى الروس في قازان في أواسط القرن السادس عشر ما يقرب من (١٠٠) ألف أسيراً ، ولم تكن الحملات الروسية للرد على هذه الغارات تؤدي إلى خضوع خانات قازان خضوعاً مؤقتاً ، فمنْ تتصبهم موسكو حكاماً لم يكونوا يتمتعون بإسناد السكان لأسباب عديدة منها : بعد مدينة قازان عن الحدود الروسية ، وتفوق المجموعة المعادية لروسيا من الإقطاعيين القازانيين داخل الخانية في أواسط القرن السادس عشر ، لهذا قرر إيفان الرابع بناء

قلعة روسية على جوار مباشر من قازان عند مصب نهر سفياغا Sviage في الفولغا ، فأعدت لهذا الغرض في أعالي الفولغا مدينة من الخشب ثم جرى نقلها على أرمات بواسطة النهر إلى المكان المحدد وركبتْ هناك عام ١٥٥١م، وبذلك ظهرت على قرب مباشر من قازان مدينة روسية جديدة أطلق عليها سفياجسكSviagorsk ، وكان من نتائج ذلك أن التشوفاشيين القاطنين في المنطقة تحولوا من التبعية لقازان إلى الخضوع لموسكو [٣٩].

اصدر القيصر ايفان الرابع أوامره للبويار بأن يقوموا بإحصاء الجنود الموجودين تحت قياداتهم ، فوجدوا انهم يناهزون مائة وخمسين الفاً مجهزين بـ (١٥٠) مدفعاً ، في حين كان عدد المدافعين عن مدينة قازان نحو (٣٠) الفاً مع وفرة من الاغذية والذخائر ، وتلقى الجيش الروسي اوامره من القيصر بالتقدم وكان يقف منتصبا في معسكره أمام راية رسمت عليها صورة المسيح ، وبينما كان يركز ناظريه توجه إليها قائلاً : " أبي باسمك نحن نتقدم " . وتم انزال المدافع والبارود من ظهور المراكب ، وجمعت الأخشاب لتشييد بروج الحصار، حيث كانت مجموعات يتألف كل منها من عشرة مشاة تنقل المواد الضرورية لكل برج ، ورفعت الايقونات والصلبان والقناديل عاليا كما رفع الصليب الكبير الذي كان ينقلونه معهم في كل معركة ، وكان يحرس الرموز الكتسية هذه كهنة يرتدون ثياب طقسية ، وقد قام الجيش الروسي كله بوقفة جديدة يتلو صلواته قبل اندفاعه في الهجوم ، وكان لدى التتر الوقت الكافي للاستعداد قبل وصول العدو ، دخل الروس إلى المدينة وانفتحت أبوابها ، واندفع جماهير التتر تحمل في أيديها سيوفها وأطلقت صرخاتها المرعبة فأصاب الخوف والذعر الروس الرماة من صراخ العدو وما هو على وجوه رجاله من تصميم على القتال فلاذوا بالفرار حالا ، وما لبثت الشوارع ان أصبحت بدمائهم جدولا أحمر دون ان يقاوموا حتى غدوا خارج المدينة ، وعندما اصبحوا هناك كادوا ينشرون الذعر في صفوف الجيش لولا شجاعة الفرسان من الامراء والبويار ، فقد أعاد هؤلاء النبلاء جمع الشمل في صفوف افراد الجيش الروسي الذين ضربهم الرعب وجرت معركة مواجهة مخططة تحت أسوار قازان ، وانصرف الروس إلى إتمام الحصار الكامل على المدينة، وكان القيصر الروسي ايفان الرابع يضع تحت الأسوار رجالا يرددون دائما : " استسلموا ! استسلموا " بهدف ان يكون من نتائج هذه استراتيجية حقن الدم الروسي ، ولم يكن التتر يثقون بهذه الوعود ويعرفون انها لا تساوي شيئاً وانهم اذا استسلموا أو هزموا ، فان رقابهم ستمر على حد السيوف ، وكان يأملون بأن الجيش الروسي سيتفرق مع الوقت بعد فشله في تحقيق انتصار سريع[٤٠] .

حارب التتار بضراوة وشنوا على الروس هجمات عديدة وكانت فصائل منهم بقيادة الامير يابانتشي Yabanchi تهاجم المعسكر الروسي من الخلف ثم تختبئ في الغابة ، وكان

المحاصرون في المدينة يتصلون ببابانتشي بإشارات يرسلونها من على برج المدينة العالي بواسطة علم كبير، لكن الروس كان إلى جانبهم التفوق العددي والتقني فقاموا منذ بداية الحصار بإحاطة قازان بتحصينات خفيفة وأغلقوا جميع الطرق اليها ، وتولى قيادة اعمال الحصار مهندس الماني وقائد روسي أسمه ايفان فيرودكوف Ivan Ferodkov[٤١]. وحفر الروس انفاقاً تحت الأرض وتتبعوا فيها مصدر الماء الرئيسي الذي يغذي هذه المدينة مستهدين في ذلك بحركة الشوارع التي تدور فوق رؤوسهم ، وكان التتر يملكون كمية وافرة من المياه ، فوضع القيصر ايفان الرابع كمية من بارود المدافع بالقرب من النبع ، وبينما الناس في المدينة ينزحون مياههم حدث الانفجار ورآه القيصر فوق تلة ترابية كان قد انشأها لتسمح له بالمراقبة ، ونجحت العملية ليس فقط في احداث تفجير كان سائغا على اسماعه ، وانما في انهيار جزء هام من سور القلعة وما لبثت فرق من المهاجمين ان جهزت فورا وأرسلت من خلال الصدع ، ولكن التتر على الرغم مما انتابهم من دهشة مما حدث تمكنوا من صد هذا الهجوم[٤٢] وبنى فيرودكوف برجاً عاليا امام بوابة المدينة تسلقه الرماة وأخذوا يقصفون القلعة منه ويسببون للمدافعين عنها أضرارا بليغة ، وفي ٢ تشرين الاول عام ١٥٥٢م وبعد حصار دام شهراً ونصف شن الروس هجوماً كبيراً على المدينة واستولوا عليها رغم المقاومة الباسلة التي أبداها المدافعون عنها الذين واصلوا محاربتهم للروس حتى بعد دخول هؤلاء القلعة ، لكن الروس احتلوا المدينة وقضوا على سكانها الذين لم يتمكنوا من الهرب وأسروا النساء والاطفال[٤٣] .

حقق الجيش الروسي نصراً كاملاً ، وشكر القيصر ايفان الرابع جنوده ، وطلب أن يحفظوا عليهم ما كسبه كل منهم إلا الجواهر الملكية لأمراء قازان التي ينبغي ردها إليه ، ورفع القيصر الصليب الذي يعطي الحياة في المكان الذي كانت ترتفع فيه راية التتر الرئيسية، وهكذا انضمت قازان الى الأرض الروسية[٤٤].

استمر الجيش الروسي بإكمال سياسته التوسعية ، وصمم القيصر ايفان الرابع على ايجاد لدولته منفذ لها على بحر قزوين ، وان تكون في وضع أفضل في مجابهة السياسة التوسعية التي كانت تنتهجها خانية القرم والدولة العثمانية، بطرد خان استراخان Astrakhan ونصبت مكانه شخصا آخر ، أسمه إسماعيل درويش وجعلته تابعا لايفان الرابع ، لكن الأخير اختط لنفسه سياسة تمثلت بالتحرر من تبعية موسكو عام ١٥٥٦م ، فأرسلت الحكومة الروسية حملة عسكرية احتلت استراخان وألحقتها بالدولة الروسية [٤٥].

ومن اهم نتائج احتلال روسيا لقازان واستراخان استحوذت على الأراضي الواسعة والخصبة المتاخمة لفولغا ، وانتقلت كلى الفولغا من منابعها حتى مصبها في بحر قزوين إلى أيدي الروس

، مما أدى إلى ازدياد أهميتها التجارية ، إذ بدأت السفن المحملة بالبضائع تقطعها شمالا وجنوبا ، وتبعا لذلك ازدادت أهمية المناطق المجاورة لوادي الفولغا واستراخان ، وفي مقدمتها السواحل الشمالية لبحر قزوين ، ويمكن تأشير ذلك بمثابة بداية طريق روسيا الى ايران[٤٦] . وأولت الحكومة الروسية اهتماما شديدا بتوطين الروس في الأراضي التي جرى الاستيلاء عليها ، وأخذ الناس يتوافدون الى هناك من المناطق الوسطى لدولة موسكو ، فظهرت هناك على مجرى الفولغا في النصف الثاني من القرن السادس عشر مدن جديدة مثل تشيبوكسار Cheboksar ، سامارا Samara ، ساراتوف Saratov ، وتساريتسين Tsaritsin وغيرها ، وشيدت مدينة أوفا في اراضي البشكير، وقد كانت الدولة الروسية قبل ضم قازان واستراخان إليها موحدة تقريباً من ناحية بنيتها القومية ، فالروس كانوا يؤلفون الأغلبية الساحقة من سكانها ، لكنها تحولت بعد الاستيلاء على هاتين الخانيتين إلى دولة متعددة القوميات كالتتار والباشكيريين الذين عاشوا في مناطق الاورال، والنوغائيون الذين كانوا يترحلون في المناطق الواقعة بين نهري يايك (الاورال) والفولغا ،والتشوفاشيين والمارتيسيين ، وأمتد تأثير الدولة الروسية في شمال القوقاز، وصارت امارة كاباردیا وقسم من قبائل الشركس من محميات روسيا ، وأدى استخدام طريق الفولغا التجاري الى توسيع العلاقات الاقتصادية والثقافية بين روسيا واسيا الوسطى وكازاخستان وما وراء القفقاس[٤٧].

وهكذا صار النصف الثاني من القرن السادس عشر مرحلة مهمة في تكوين روسيا بوصفها دولة متعددة القوميات ، ومنذ ذلك الحين أصبح مصير شعوب الفولغا والاورال مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً دائماً بالتطور التاريخي للشعب الروسي .

واستمر القيصر ايفان الرابع بتنفيذ سياسته التوسعية شمال القوقاز ليقيم بهذا أسس الإمبراطورية الروسية ، وقد وجد القيصر في هذه المنطقة حلفاء له في وسط الشركس والنوغاي ، بينما وافق في الغرب أمير مولدافيا بتروارش Petrarch على وضع نفسه تحت حماية موسكو ، وتُوج هذا التوسع الروسي بمحاولة قائد القوزاق Cossacks [*] ديمتراش Dimirach الاستيلاء على قلعة أزوف في ٧ كانون الثاني ١٥٥٨م التي تمثل آخر موقع حدودي للإمبراطورية العثمانية باتجاه الشمال ، واستمرت روسيا في توسيع نفوذها على حساب ممتلكات الدولة العثمانية في القوقاز والبحر الأسود [٤٨].

أدرك القيصر ايفان الرابع ان سياسة السلم مع العثمانيين هي السبيل الوحيد للمحافظة على مواقعه العسكرية في حوض الفولغا، وتبعا لذلك اعترف بالسيادة العثمانية على خانية القرم

لتأمين طريق الحجاج المسلمين ، وتركت الدولة العثمانية امر مواجهة روسيا إلى حلفائها تتار القرم [٤٩].

أصبحت روسيا دولة كبيرة لها امكانيات واسعة لا سيما بعد نجاحها في التوسع السياسي نحو الشرق وسيطرتها على قازان واستراخان، وصارت حدودها تمتد الى بحر قزوين ، فهي بحاجة الى التبادل التجاري الدولي، ولم يكن طريق بحري بين روسيا وأوربا سوى البحر الأبيض الشمالي ، علما ان الطريق إلى أوربا من هذا البحر طويلا وتكتنفه الصعوبات، ولا سيما ان مياهه تتجمد معظم ايام السنة ، لذلك بدأ القيصر الروسي ايفان الرابع بتنفيذ سياسته التوسعية باتجاه الغرب والسيطرة على بحر البلطيق بشكل يتيح للدولة الروسية الاتصال بالعالم الخارجي[٥٠] .

كانت الاراضي التي تفصل روسيا عن بحر البلطيق تعود الى ليفونيا التي كانت في اواسط القرن السادس عشر تعاني من ازمة داخلية حادة ، حيث كانت منظمة الفرسان الليفونيين الالمانية التي تؤلف القوة العسكرية الرئيسة لليفونيا تعاني من تدهور احوالها الى حافة الانهيار ، وكان كبار رجال الدين وسكان المدن والفرسان هناك يعيشون حياة بذخ وأسراف في الوقت الذي كان فيه الفلاحون يرزحون تحت ظروف غاية في القسوة ، الامر الذي اوجد تنافراً حاداً بين العلية المتنفذة وجماهير السكان ، يضاف الى ذلك أن صراعا حادا كان قائما في ليفونيا بين الكاثوليك والبروتستانت من جانب ، وكانت العلاقات بين الدولة الروسية وليفونيا متوترة منذ وقت طويل ، والسلطات في ليفونيا تتصرف بعنف تجاه الروس وتعرقل قدوم الخبراء والحرفيين من اوروبا الغربية الى موسكو خشية من تقويتها عسكرياً ولم يظهر الفرسان جهدا في هذا السبيل[٥١] . كذلك اعربت الحكومة البولندية عن موقفها تجاه ذلك وأكدت على موسكو تمثل العدو لكل حرية تزداد قوة يوماً بعد يوم بسبب زيادة أشياء مثل تلك التي تجلب الى نارفا ليس السلع وحدها هي التي تجلب اليها ، بل الاسلحة غير المعروفة لها حتى الان والصناع والتقنية ، وإذا استمرت هذه الملاحة الى نارفا ماذا سيبقى مجهولا بالنسبة لها والتنبؤ عما ستكون فيه الاحوال لاحقا إذا لم يأخذ الامراء الاخرون بهذا التحذير ، فأن موسكو ستفتخر بهذه الاشياء التي تجلب الى نارفا وتصبح اكثر أهلية في الشؤون العسكرية وبالآت الحرب والسفن وسوف تحارب العالم المسيحي وتقضي على كل من يواجهها[٥٢].

ان تدهور احوال ليفونيا ومواقفها العدائية تجاه موسكو جعلت القيصر الروسي ايفان الرابع مصمما على تحقيق طموحاته السياسية بالوصول الى بحر البلطيق بالقوة ، فأثار قضية كانت منسية تتعلق بالتزام المنظمة الليفونية بدفع اتاوة عن مدينة يورييف Yuraev ، اعترافا منها بأن الامراء الروس هم الذين شيدوا المدينة ، لكن المدينة تجاوزت هذا الالتزام ولم تدفع

الاتاوة طيلة خمسين سنة معتقدة أن روسيا ضعيفة ولن تستطيع اجبارها على الدفع ، واستغل ايفان الرابع ذلك وأخذ يطالب بالاتاوة فقامت بين الجانبين مفاوضات في ٩ كانون الثاني ١٥٥٨م مفاوضات حول ذلك طالب وفد المنظمة الذي قد جاء الى موسكو لهذا الغرض خلالها بتأجيل الدفع ، لكن القيصر الروسي رفض الطلب وأمر بإعادة أعضاء الوفد الى بلادهم دون أن يلتقي بهم وأتخذ ذلك حجة لشن الحرب على ليفونيا لا سيما وأنها احتجزت نحو (١٢٣) اختصاصياً كان القيصر قد استدعاهم من اوروبا الغربية[٥٣] .

وصل الى موسكو وفد ليفوني في ٤ شباط من العام ذاته لم يكونوا يحملون الجزية معهم حتى طردوهم الى ليفونيا بعد ان قال لهم ايفان الرابع : " إذا لم تأتوا معكم بالجزية حالا كما وعدكم فأننا سنجد الوسيلة لأخذها منكم " . ثم كلف الامير شاستانوف Shastanov ، بمحاصرة الحصن الواقع عند مصب نهر ناروفا وتم الاستيلاء عليه واطلق عليه إيفانفورود Ivanford ، وهكذا يكون القيصر ايفان الرابع قد نفذ الى البلطيق في وقت مبكر وحصل على قاعدة تجارية للاتصال بمدن الجامعة الهانسية [٥٤] Hanseatiqes ، ولم تكن هذه القاعدة في منجى كامل عن كل هجوم ، فهي تقع مقابل نارفا ذات الحامية القوية المؤلفة من الليفونيين ، وقد استعد إيفان الرابع لغزو قطاع مهم من ليفونيا لاعتقاده هو والبويار بأن الفتح سيكون هينا ومضى نحو ستة اشهر في الاستعدادات العسكرية ، وكان الامراء الشراكسة بعد سقوط استراخان قد قدموا من مجرى الفولغا الادنى وسهوب القوقاز الشمالية مع كتائب كبيرة من فرسانهم للدخول في خدمة القيصر ، وهكذا فأن روسيا كانت مع توسعها قد ضاعفت من قوة جيشها ، وكان التسلح بالمدافع يسير في المقدمة كلما تقدم الجيش ، كان عندهم مدافع جميلة من النحاس وقواعد ومدافع متوسطة وصغيرة وصقور وانواع من المدافع القديمة ، ومدافع مزدوجة وملكية ، وعندهم ستة مدافع لها قذائف طول كل منها (٩٠سم) تسعون سنتمترا ، يستطيع المرء بسهولة يتتبع مسارها عند خروجها من المدفع ، كما كانت لديهم عدد كبير من مدافع الهاون والفتحات الجدارية التي كانوا عن طريقها يقذفون بالنار اليونانية، وكان القيصر ايفان الرابع قد الغى الخدمة الاجبارية الاقطاعية التي تتم عن طريق السخرة في الجيش وفرض رسوما على التجارة والارض كان يجبيها الملتزمون ويوردونها الى خزينة القيصر وكانت ملكية الارض لا تزال تجبر صاحبها واتباعه على الخدمة ، ولكنهم صاروا يحسبون اجر الرجل من هؤلاء ويحسمونها من الرسم المفروض على الارض ، والاقطاعات الكبيرة التي لم تكن تستطيع ان تقدم حصتها من الرجال كانت تنتقص مساحتها او يفرض عليها غرامة لتغطية الفارق بين ما تقدمه من الرجال وما هو مفروض عليها من رسوم ، ونشأت مصلحة للمساحة اصبح بالإمكان عن طريقها معرفة

القيمة التقديرية لعدد الجيش ، وكان كل من يعمل ينال اجر عمله ، وهذا ما يفسر التوسع الكبير في القوات العسكرية التي يتصرف بها القيصر الروسي ايفان الرابع [٥٥] .

كانت خطوات الفرسان الليفونيين دافعاً جوهرياً لبدء العمليات الحربية بعد ان خرقت اتفاقها مع موسكو وتحالفت مع ليتوانيا ضد روسيا ، فأقتنع القيصر ايفان الرابع بأن سياسة القوة هي السبيل الوحيد للحصول على منفذ الى بحر البلطيق وعلى هذا الاساس بدأت الحرب الليفونية Livonian War التي استمرت خمسة وعشرين عاماً (١٥٥٨-١٥٨٣م) [٥٦].

كانت عدد القوات الروسية التي اجتازت الحدود نحو أربعين الف شخص ، واقتصر القادة الروس في البداية على اجتياح الارض المكشوفة متجنبين حصار القلاع والمدن المحصنة التي التجأ اليها الكثير من الليفونيين ، وحاول استاذ منظمة الفرسان الليفونيين فورستنبيرغForstenberg جمع قوات لصد الهجوم الروسي لأن تحلل الاعيان الليفونيين وصل الى درجة أنهم كانوا يتجنبون بمختلف الحجج وبكل السبل المشاركة في الحرب[٥٧] .

وقف الفلاحون الاستونيين واللاتفيين الى جانب الروس وكان يعملون أدلاء للقوات العسكرية الروسية وجمعوا كل المعلومات عن الاعداء ، بل اكثر من ذلك فقد شاركوا في العمليات الحربية [٥٨].

بدأت العمليات العسكرية ضد المدن في ٢٢ كانون الثاني ١٥٥٨م فاجتاح الجيش القيصري ليفونيا في الجنوب والغرب من دوربات على جبهة طولها (٢٤٠) كم خارقا المزارع والقرى ، واتصفت هذه الحملة بالعنف والقسوة ، فكم من الفتيات اغتصبن وكم من الرجال اختطفهم الموت على يد الجنود ، فالمسألة لم تكن تماما حرب لأنه لم تقم إلا مقاومة ضئيلة في وجه الاعداء ، فقد كانت في بداية الامر حملة تأديبية غايتها نشر الرعب وإقناع الفرسان واسقف دوربات انه سيكون من الاسلم لهم أن يتفاهموا ويدفعوا ما عليهم من جزية ، ولم يحاول الجيش الروسي ان يستولي على المدن المحصنة مثل دوربات ، بل احال الى رماد التجمعات السكانية المهمة مثل مارينبورغ Marinburg ، والتنهون Tanhun ، ونيلهاوس Nellhouse ، وقد حاولت الجيوش الالمانية القيام بخروج من دوربات، ولكن الروس ردوها بعد أن كبدوها خسائر فادحة واندفع جزء من الجيش نحو الشمال حتى سواحل البلطيق مستوليا على القرى بدءا من ويسمبرغWeisberg وعلى امتداد الساحل حتى وصل الى بعد (٥٠) كم خمسين كيلو مترا من ريغا [٥٩].

حقق الجيش الروسي نجاحا عسكريا ضد المدن بمدينة نارفا التي استسلمت للروس بعد قصف شديد بالمدافع ثم جرى الاستيلاء على القلعة الليفونية الحصينة نيهاوزن Newhausen ،

الواقعة الى الغرب من بسكوف ، وكان الاستيلاء على يوروييف القلعة الحصينة التي بلغ مدافعها لوحدها (٥٥٠) مدفعا نجاحا مهما آخر حققته القوات الروسية ، وقد استسلمت يوروييف بشرط المحافظة على أمتيازاتها [٦٠].

وازاء هذه الاحداث سعت ليفونيا الى الصلح واعلن القيصر ايفان الرابع هدنة تبدأ بابتداء الصوم الكبير وتنتهي بعيد الفصح ، الا ان الفرسان في نارفا خرقوا الهدنة واداروا مدافعهم نحو إيفانغورد فارسل إيفان الامير تيمكين Timkin على جناح السرعة بمهمة لتدمير اثنتي عشرة قرية ليفونية ردا على الطلقات التي اطلقت من نارفا ، ولكن هذا التدبير لم يؤثر على الفرسان الذين استمروا بإطلاق مدافعهم على إيفانغورد رغما عن إرادة عمدة المدينة وتجارها ، وكان سكان نارفا يخشون ان ينالهم نفس ما نال سكان القرى الليفونية الاخرى من مصير. فأرسلوا تحت جنح الظلام مبعوثين الى ايفانغورد يفاوضون باسمهم ويعلنون انهم لا يرغبون بديلا عن ان يكونوا رعايا القيصر المسالمين المخلصين ، وتوجه مبعوثون منهم الى موسكو مكلفين بالدفاع عن قضيتهم ، ولكن إيفان وضع شرطا لذلك ان يضعوا بين يديه مفاتيح المدينة ويسلموه شيلنبرغ Schillenberg قائد الفرسان ، وانفجر الحريق في نارفا وتروي الاسطورة أن جنودا من الالمان دخلوا منزل تاجر روسي كبير كان يسكن المدينة وانتزعوا ايقونة للسيدة العذراء رأوها تتصدر المكان والقوا بها في مدفأة المطبخ فوقعت على الجمر ووجهها الى الاسفل ، ولكنها لم تحترق بل تسببت في إشعال الحريق ، وقد لوحظ ان نصف المدينة قد امسكت به النيران فاستفاد الجيش الروسي من هذه الفرصة للاستيلاء عنوة على اسوارها ، وقد انفض الجنود دون ان ينتظروا اوامر قوادهم واجتاز بعضهم نهر تاروفا Tarova في قوارب ، بينما انتزع اخرون ابواب بيوت ايفانغورد واستخدموها لاجتياز النهر وبنى اخرون لهذه الغاية اطوافا من الاخشاب ، وعندما رأى الامراء هذا الهجوم العفوي لم يستطيعوا التخلي عن دعم هذه المأثرة المشرفة وأعطوا اوامرهم للقسم المتبقي من الجيش بأن ينضم للمهاجمين ، وقد برع في هذه العمليات كل من الامراء دانيال ارداتتسيف Daniel Ardatsev، والكسي باسمانوف Alexei Basmanov، وايفان بوتورلينIvan Boutorlin ، وساد الاضطراب بين المدافعين الذين لم يتمكنوا من صد الهجمات وسقطت نارفا Narva بأعجوبة بيد الروس ، وقام الفرسان بمغادرة المدينة مع نسائهم ، وخفق العلم الروسي فوق نارفا ، ووجدت ايقونة السيدة العذراء بين الرماد وما أن عادت الى مكانها واسترجعت شأنها حتى هدأ الحريق ، وقد استولى الروس على مائتين وثلاثين مدفعا وعلى الثروات التي تركها الفرسان ساعة الرحيل ، واكتشف ان معظم السكان كانوا من حزب الروس فلم يتعرضوا للأذى ، بينما اقسم الجميع طواعية يمين الولاء للقيصر الروسي ايفان الرابع ، هذه

الانباء ملأت قلب القيصر نشوة وسرورا ، فقام بخدمات شكر في الكاتدرائيات واقيمت الولائم في القصور ، وكان المتروبوزليت سعيدا ايضا فأصدر اوامره بتطهير نارفا من الدنس اللاتيني واللوثري وبناء كاتدرائية توضع فيها الايقونة الصغيرة العجائبية للسيدة العذراء [٦١].

وفي الثالث من ايلول ١٥٥٨م استسلمت جميع المدن والقلاع الليفونية للقوات الروسية طوعا وحربا عشرين مدينة وقلعة ، وقد منح القيصر ايفان الرابع المدن التي جرى الاستيلاء عليها براءات احتفظت تلك المدن بموجبها بامتيازاتها السابقة فمثلا استمرت مدينة يوربيف بإدارتها الذاتية ومنح سكانها الحق في المتاجرة في بسكوف ونوفغورد ونارفا بدون ضرائب كمركية ، وكان القادة العسكريون يحرصون بشدة على المحافظة على النظام وكانوا يمنعون الجنود تحت طائلة العقاب الشديد من الاساءة للسكان ، بعد سقوط مدينة فيلين Feelin ، وأسر استاذ المنظمة الليفونية وانهارت ليفونيا وانتهى وجودها كدولة إذ باع أسقف جزيرة ايزيل Ezell ممتلكاته الى ملك الدانمارك الذي بدوره تنازل عن هذه الممتلكات لأخيه ماغنوس Magnus وانضمت ليفلاند Lieveland الى ليتوانيا وايستلاند Eastland الى السويد وأصبحت كوريلاند Koreland تابعة اقطاعيا لملك بولندا[٦٢] .

اثار وصول الروس الى ساحل البلطيق الدول الاوروبية بأجمعها واتحدت في مجابهة روسيا ولا سيما بولندا والسويد التي طالبت بانسحاب القوات الروسية من الممتلكات التي آلت اليها بعد انهيار ليفونيا ، فأعلنت روسيا رفضها القاطع ، فتحولت الحرب الليفونية ابتداءا من ٤ كانون الثاني ١٥٦٠م الى حرب بين الدولة الروسية من جهة وبولندا والسويد من جهة أخرى ، لكن خلافات شديدة كانت قائمة بين بولندا والسويد حتى ان بولندا صممت على محاربة السويد ، وأتحد البولنديون وجمعوا قواهم العسكرية من اجل استقلال دولتهم وطرد جميع المسكوفيين التي تؤلف قوتهم خطرا على بلادهم والبدء بموسكو اولا [٦٣].

بدأت القوات العسكرية الروسية عملياتها الحربية ضد القوات الليتوانية واجتاز الجيش الروس بقيادة القيصر الروسي ايفان الرابع نفسه حدود ليتوانيا وحقق نجاحا عسكريا بمحاصرة بولوتسكPolotsk التي استسلمت في ٢٢ شباط ١٥٦٣م بعد حصار دام اسبوعين ، وبعده هدأت العمليات العسكرية وانتهت بذلك المرحلة الاولى من الحرب الليفونية[٦٤] .

اتخذ القيصر ايفان الرابع جملة من الاجراءات في سعيه للانفراد بالسلطة وتحجيم مساعي الأمراء والبويار للمشاركة في إدارة الدولة الروسية ، وأصدر عدداً من المراسيم أفقدت البويار امتيازاتهم القديمة ، فقد أصدر مرسوماً في ٣ اذار ١٥٦٥م فرض بموجبه على اصحاب الارض الموروثة ان يجهزوا القيصر بمحاربين مع سلاحهم تلاه مرسوم آخر أفقد البوياري حقه

بالانتقال من الخدمة لدى أحد الأمراء الى الخدمة مع احتفاظه بأرضه واصبح على البوياري الذي يريد الانتقال أن يتخلى عن الارض الذي يملكها، الامر الذي ادى الى زيادة استياء البويار وتعميق نقمتهم على القيصر الروسي [٦٥]. بالمقابل زاد استياء ايفان الرابع على البويار ومستشاريه المقربين لأنهم عارضوا تولي أبنه دميتري الحكم من بعده [٦٦] .

ركز ايفان بيريسفيتوفIvan Perisvitov المفكر الروسي الايديولوجي على طبقة الدفوريان المتعالية والحكم المطلق ، فقد أكد في مؤلفاته ان الذنب احتلال العثمانيين للقسطنطينية يعود على الوجهاء الذين اضعفوا سلطة الأباطرة البيزنطيين باستهتارهم وعدم انصياعهم ، وعلى العكس فأن السلطان العثماني مراد الثالث (١٥٧٤-١٥٩٥م) احرز انتصاره لان رعيته يطيعوته طاعة مطلقة ، لذلك نصح المفكر الروسي القيصر ايفان الرابع قائلاً : " ان ينتقم بلا رحمة من البويار والامراء الغير منصاعين له الذين عصوا اوامره، واخفقوا في الدفاع بثبات عن ديانتهم المسيحية ، ولا يدينون بالولاء والاخلاص للدفاع عن بلادهم ضد الاعداء، وبذلك فهم يكذبون على الله والقيصر الروسي " . [٦٧].

تأثر القيصر الروسي بآراء الكاتب الروسي المعاصر له بيريسفيتوف الذي كان يؤكد ان السند الحقيقي للدولة هم المحاربون وليس الاغنياء المتفاخرين الذين لا يجيدون سوى التبختر بالملابس الزاهية والتفاخر بركوب الخيل ، ولهذا اقترح على القيصر ان يؤسس جيشا قوياً من الدفوريان يتألف من (٣٠٠) الف شخص يسلحون بأسلحة نارية وان يرفع هيبة هؤلاء العساكر ويفرح قلوبهم وتخصص لهم رواتب نقدية [٦٨].

لقد كان هناك خونة حقيقيون تركوا الدولة وأنضموا الى أعدائها منهم الامير اندريه كوربسكي الذي ترك القلعة والقوات التي كانت بأمرته في مسرح العمليات العسكرية في ليفونيا ولجأ الى ليتوانيا ، فقد حرض بولندا على القيام بعمل ضد القيصر الروسي ايفان الرابع وكان مسؤولا عن غزو خان القرم لموسكو[٦٩] . ومن هناك كتب ايفان الرابع عدداً من الرسائل حاول فيها أن يبرر هربه بالعنف والحقد الذي يكنه القيصر للبويار ، لكن السبب الحقيقي لتحوله الى الاعداء كان استياؤه من تعزيز السلطة المطلقة للقيصر التي كان يناهضها[٧٠].

كتب القائد العسكري كوربسكي Korbski في مؤلفه (قصة عن امير موسكو الكبير) عبر فيها عن رأي البويار الرجعيين وعارض اصلاحات ايفان الرابع الموجهة الى تعزيز حكم القيصر الفردي والإعلاء من شأن الدفوريان ، وأكد القائد ان على القيصر ان يحكم البلاد مع البويار والامراء ، وحاول كوربسكي في رسائله الى ايفان الرابع ان يبرر خيانته ، وقد اتهم القيصر في رسائله الجوابية البويار بخيانة الدولة وكتب بانه تسلم لقب القيصر (بإرادة الله)

وليس من البويار والقساوسة ، ولذلك فهو حر في اعدام جميع افراد رعيته او العفو عنهم . وكانت رسائل القيصر ايفان الرابع مكتوبة بلغة بليغة رائعة وهي تعد أثراً من آثار الادب السياسي في القرن السادس عشر ، بينما آراء كوربسكي هي انعكاس الأيديولوجية الارستقراطية الكبيرة التي تبلورت الرفض القاطع للحكومة القيصرية الاستبدادية المطلقة[٧١] .

تأزمت الاوضاع السياسية في ليفونيا نحو الأسوأ بالنسبة للروس الذين تعرضوا الى هزائم متلاحقة ، ومما زاد الطين بلة أن خان القرم قام في هذا الوقت بحملة عسكرية على موسكو فضلا عن ذلك خيانة البويار في الداخل ادى الى ظهور الاوبريتشنينا Oprichnina[٧٢] وجرى ابعاد الامراء والبويار من اراضي الاوبرشنينا واسكانهم في اراضي (الزيمشينا) Zemshchina [٧٣] اما العقارات المصادرة منهم فقد وزعت على الملاكين العقاريين ، ولم يترك في الاماكن القديمة غير البويار الذين ابدوا موافقتهم على خدمة القيصر الروسي بأمانة واخلاص[٧٤] .

اتبع القيصر ايفان الرابع سياسة توسيع اراضي الأوبريتشنينا بضم اراضي جديدة لها باستمرار بحيث أصبحت تشمل جميع المناطق الداخلية من الدولة الروسية، وغدت بما تشتمل عليه من طرق مواصلات وجميع الأسواق المهمة في البلاد تقريبا[٧٥].

بهذا الشكل جرد القيصر ايفان الرابع الأمراء والبويار من قوتهم التي كانت ملكيتهم للأرض أساسا لها وجعلهم يفقدون صلتهم بسكانها الذين كانوا ينظرون إليهم على أنهم كانوا يوما ما أمراء مستقلين ويتعاملون معهم على هذا الاساس .

كان القيصر الروسي بحاجة الى حجة يعتمد عليها لعقاب سكان نوفغورد وقد نجح في اتهامهم بالخيانة عن طريق تاجر متجول حمل الى موسكو قصة عن مؤامرة ، فاستغل بعض المقربين من القيصر ما قدمه هذا الرجل من معلومات، بسبب ما يكنه لهذه المدينة من ضغائن صغيرة ، والقصة التي تم الاعتماد عليها هي أن مطران المدينة فيليب والنبلاء من مواطنيها كانوا قد كتبوا رسالة جماعية الى ملك بولندا سيجسموند أوغست Sigmund August يعرضون عليه أن يخلصهم من تبعية القيصر ، ولم تكن هذه الرسالة قد أرسلت ، ولكنها وجدت حاليا وراء إيقونة للسيدة العذراء في كنيسة القديسة صوفيا في نوفغورد، وما علم القيصر بذلك حتى أرسل فوراً مندوبا اكتشف مكان الرسالة ، وقرر ايفان الرابع ان يعاقب نوفغورد وكان يومئذ في الكسندروف Alexandrov ، وكذلك علم القيصر بالاتصالات السرية مع أبن عمه فلاديمير اندريفتش Vladimir Andreevich الذي كان ينوي الانضمام الى ملك بولندا ، فأجبر القيصر ايفان الرابع ابن عمه على تناول السم وأعدم انصاره في الثاني من ٢ كانون الثاني ١٥٦٩م وفي الوقت نفسه وبأمر منه قام ماليوتا سكوراتوف

Maliota Skoratov بخنق المطران فيليب الذي كان من المناهضين للأوبريتشنينا [٧٦].

سافر القيصر ايفان الرابع في السابع من الشهر نفسه من الكسندروف في حملة تأديبية يصحبه فريق قوي من الاوبريتشنينا وولده إيفان وقسم كبير من نبلائه، وقامت القوات العسكرية الروسية بذبح سكان كلين وانتشرت في المدينة الحرائق والقتل والنهب وغطت الشوارع الجثث وكان من بينها جثث الأطفال والنساء ، وامتدت المذبحة الى قراها المجاورة ، ولا سيما في تفير Tver، فقد انتقلت القوات العسكرية الروسية من بيت الى بيت ، ومن شارع الى شارع تقتل الناس ، وعلى طول الطريق من تفير الى نوفغورد كانت تتنافس وحشية القيصر الروسي ووحشية حرسه الخاص ، فكل بلدة صغيرة اجتيحت بالسيف والنار . وفي٢٢ كانون الثاني ١٥٧٠م وصل ايفان الرابع والاوبريتشنينا الى نوفغورد ، فاتخذت احتياطات في بادئ الامر لكي لا يفر منها احد وكان لا بد من أن تقام حولها أسيجة عالية ، ثم أغلقت أبواب كل الكنائس بالمفاتيح لكي لا يقدم احد على ايجاد ملجأ في هياكلها ، وكان على الرهبان ان يخلوا أديرتهم التي ختمت ابوابها لمنع الضحايا من الاختباء في زنزاناتها المظلمة أو يفروا منها عن طريق السراديب ، وأقفلت بيوت كل تجار المدينة الاغنياء وموسريها ، وأجبر سكانها على أن يبقوا سجناء في داخلها ، وأوقف كل الموظفين ورجال الدين ، وأسكتت كل أجراس الكنائس وغلف المدينة صمت مقلق قبل القيام بعملية التنفيذ. وكانت المدينة تضم آلاف الكهنة والرهبان ، فأصدر إيفان الرابع قراره بأن يدفع كل واحد منهم عشرين روبلا ، فكيف يستطيع رهبان فقراء كانوا قد تخلوا عن الدنيا لان يجدوا مثل هذا المبلغ ليدفعوه الى القيصر الروسي، لكن الاخير لم يكن يهمه شيء من ذلك ! فأولئك الذين لا يستطيعون الدفع تنزع عنهم ثيابهم ويربطون الى اوتدة في الشوارع والساحات العامة ويجلدون بالعصي حتى يقروا اين يخبئون ثرواتهم ، وعلى هذه الطريقة وجد المئات من رجال الدين نهايتهم القاسية وحملت جثثهم الى الاديرة لدفنها [٧٧].

ان المحتوى الرئيس للأوبريتشنينا يكمن في معناها الاجتماعي لأنها تعدّ مرحلة في الكفاح من اجل تقوية وتعزيز السلطة المركزية على حساب التجزئة الإقطاعية ، فقد خطت البلاد بنتيجتها خطوات لا يستهان بها على طريق تعزيز السلطة المركزية ، واضعاف نفوذ البويار ، فبموت أبن عم القيصر فلاديمير اندريفتش زالت اخر إمارة إقطاعية ، وبالإطاحة بالمطران فيليب ازداد نفوذ الدولة على الكنيسة ، وبتحطيم نوفغورد تم القضاء بشكل قاطع على مظاهر الاستقلال الذاتي[٧٨].

لم تكن الحرب الليفونية قد انتهت عندما قامت الاوبريتشنينا ، اقترح البولنديون على القيصر ايفان الرابع عقد هدنة في ٦ نيسان ١٥٦٦م ، فعقد القيصر لهذا الغرض مجمع أقاليم نظر في

الامر وقرر الرفض القاطع للهدنة ومواصلة الحرب لأنه عدّ " أن تحرير الرعايا الروس في الدولة البولندية –الليتوانية قضية قومية " (٧٩).

وجه الباحث الروسي بوغانوفBouganov الانتقادات الى هذا القرار الذي يعدّ دليلا واضحاً على أن القيصر الروسي ايفان الرابع ومستشاريه لم يحسنوا تقدير الامور لان رفضهم الهدنة وضعهم في صراع مباشر مع تكتل من الدول الاوروبية في ظرف غير مناسب تميز بتوتر الوضع الداخلي وعدم وجود حليف في الخارج (٨٠).

جرت أحداث مثيرة في ٨ تموز ١٥٧٢م فقد حصل تغيير حاسم في الوضع العسكري في ليفونيا ولا سيما بعد وفاة الملك البولندي سيجسموند أوغسطس ، ولم يكن له وريثا من بعده فأنقطع حبل الوراثة في أسرة ياغيليونوف ، فسعى العديد من النبلاء البولنديين والليتوانيين الى ترشيح ايفان الرابع أو ابنه فيودور للعرش البولندي ، وقد صرح القيصر قائلاً : " إذا كنتم موافقين على فيدور فلم لا اكون أنا ؟ " . ما كان يزعج القيصر الروسي سمعته الخارجية السيئة التي سببها له ما أرتكبه من إعدامات ومذابح ، وكانت الملكية البولندية مملكة انتخابية فصوت لغير صالح إيفان الرابع كثير من الناخبين (٨١).

اختار السيم الذي يعد مؤسسة طبقية تمثيلية كانت في المرحلة الاقطاعية أعلى سلطة في الدولة في بولندا وليتوانيا وريتش Rish في سبوليتا Spoleta حاكم ترانسلفانيا القائد العسكري ستيفان باتوري ملكاً لبولندا الذي أعلن استعداده للحرب ضد الدولة الروسية وتوغلت قواته العسكرية في ٤ اب ١٥٧٨م في الجزء الجنوبي من ليفونيا واستولت على معظم المدن ، وانضم ماغنوسMagnus وأرسل السويديون قواته لمساعدته ، وحين ألتقى مع القوات الروسية في ضواحي فيندين Vendin أصيب الروس باندحار شنيع وانسحبوا في الظلام بعد أن تكبدوا خسائر فادحة ، حيث قتل أكثر من ثلث قواتهم التي كان تعدادها تسعة عشر ألف مقاتل، وفي ٥ ايلول من العام نفسه أستولى باتوري على بولوتسك رغم المقاومة الضارية التي أبداها المدافعون عنها (٨٢).

حققت قوات باتوري نجاحا عسكريا ودخلت الاراضي الروسية نفسها وسيطر على المدن الحدودية وفليكيه لوكي في ٧ ايلول ١٥٨٠م وأحرقت قواته روس القديمة ، واجتاحت منطقة يوروييف في ليفونيا بمساعدة ماغنوس ، وصمم باتوري توجيه ضربة حاسمة الى مدينة بسكوف التي كانت اقوى قلعة روسية امتازت بمتانة اسوارها وبحاميتها العسكرية والدفاع البطولي الذي لعب دوراً هائلاً ، فقد دافع سكان بسكوف عن المدينة ببسالة طوال خمسة اشهر ، وشاركت النساء والاطفال في الدفاع عن قلعة المدينة ، اذ كانوا يحضرون الأسلحة والذخائر للمقاتلين في سد

الثغرات في جدران القلعة تحت نيران العدو ويزودون حماة المدينة بالماء والطعام ، وتم صد هجمات قوات العدو المتفوقة ، واحبط الدفاع عن بسكوف مخططات الاعداء في متابعة الحرب وتنظيم تدخل واسع الى اعماق روسيا(٨٣).

وبذلك يكون الدفاع عن بسكوف قد أنقذ الدولة الروسية من مصاعب خطيرة ، وعرقل طموحات باتوري العسكرية ، فأسهم ذلك الى جانب شعور البولنديين بالملل من مواصلة الحرب الليفونية واعلنوا رغبتهم في أنهائها في تمهيد الأجواء للصلح وإيقاف العمليات العسكرية بين الاطراف المتحاربة .

انتهت الحرب الليفونية في ٦ايلول ١٥٨٢م بعقد هدنة عقدت بين ريتش والدولة الروسية تخلت الاخيرة بموجبها عن ليفونيا ، ثم عقدت هدنة ٣ اذار ١٥٨٣م بين روسيا والسويد مستغلة انشغال روسيا بالحرب ضد بولندا فهاجمتها واحتلت معظم المدن الروسية ايفانغورد وكوبوريه الواقعة على خليج فنلندا (٨٤).

كان من اهم نتائج الحرب الليفونية كلفت الروس خسائر بشرية ومادية كبيرة ، ولم تحقق الدولة الروسية اهدافها السياسية المرسومة فضلا عن ذلك تخلي روسيا عن الاراضي المتاخمة لبحر البلطيق التي استحوذت عليها كلا من بولندا والسويد وحرمت الروس من منفذهم الصغير ولا سيما انجريا Ingria ، بما في ذلك مصب نهر نيفا مما قطع الدولة الروسية عن خليج فنلندا.

يتضح مما سبق ان الاسباب الرئيسة التي ادت الى خسارة روسيا في الحرب الليفونية هي خيانة قادتها العسكريون الذين تركوا ساحات الحرب وانحازوا الى البولنديين اعداء روسيا والسبب الحقيقي للخيانة هي استياؤهم من تعزيز السلطة المطلقة للقيصرية والتي هي انعكاس الأيديولوجية الارستقراطية الكبيرة التي تبلورت الرفض القاطع للحكومة القيصرية الاستبدادية المطلقة، فضلا عن ذلك توتر الاوضاع الداخلية في موسكو بعد هجمات تتر القرم عليها بمساعدة القادة الخونة الذين تم تزويد خان القرم بمعلومات وتفاصيل دقيقة عنها.

توفي ايفان الرابع في ٢٨ اذار ١٥٨٤م دون ان يحقق طموحات روسيا السياسية لإيجاد منفذ بحري لبلاده واستمر القياصرة الروس من بعده بانتهاج سياسة خارجية بالانفتاح عبر البحار لاسيما بحر البلطيق وبحر الاسود للخروج من العزلة الجغرافية وتعزيز علاقاتها الدبلوماسية والسياسية والاقتصادية مع دول العالم .

الخاتمة

اوضحت الدراسة ان شخصية القيصر ايفان الرابع ١٥٣٣-١٥٨٤م من الشخصيات التي مارست دور فاعل في تاريخ روسيا الحديث بإصراره على اتخاذ سياسة اصلاحية في دولته تمثلت بجملة من الاصلاحات الادارية والاقتصادية والعسكرية العمرانية وهدفه الرئيس لتقوية السلطة المركزية والقضاء على التجزئة الاقطاعية والرشوة والفساد في دوائر الدولة، وتحجيم دور الكنيسة في حياة المجتمع الدينية وتقليص ملكيتها لمساحات من اراضيها ، وتقوية الجيش وتنظيمه وتسليحه بأسلحة حديثة لأنه يمثل القوة الضاربة للاعداء ، والارتقاء بها الى مصاف الدولة المتقدمة قياسا بالدول الاوروبية .

وكانت للسياسة الاصلاحية انعكاسات على سياسته الخارجية نحو الشرق والغرب ، لان التخطيط المنظم للشخصية القيادية تستند على اولويات الاصلاحات التي تجعل الدولة منظمة وقوية قادرة على مواصلة مخططاتها السياسية والتوسع الخارجي نحو الشرق والغرب ، وتكوين امبراطورية روسية واسعة الارجاء وفتح نافذة بحرية لبلاده للتحرر من العزلة الجغرافية التي تعاني منها ، ونجح القيصر الروسي في تحقيق طموحاته السياسية بعد ضم الاراضي في الشرق باتجاه قازان واستراخان ، وكان من اهم نتائج هذا الضم استحواذ روسيا على الاراضي الواسعة والمتاخمة للفولغا التي انتقلت من منابعها حتى مصبها الى ايدي الروس ويمكن تأشير ذلك بمثابة التوسع الروسي نحو ايران.

وكشفت الدراسة ان القيصر ايفان الرابع اختط سياسة تهجير الروس من موسكو الى الاراضي التي تم السيطرة عليها ، فظهرت مدن جديدة على مجرى الفولغا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر لاسيما سامارا وساراتوف وغيرها ، فضلا عن ذلك ان استخدام طريق الفولغا للنشاط التجاري ادى الى تعزيز العلاقات الاقتصادية والثقافية بين روسيا واسيا الوسطى وكازاخستان وما وراء القفقاس.

واتصفت سياسة القيصر الروسي بالقسوة والعنف الذي ارتكب الكثير من المجازر الدموية ضد مواطنيه ، وكانت لديه اساليب خاصة في التعذيب ، بسبب المعاملة السيئة التي تعرض لها في طفولته على يد البويار .

وكشفت الدراسة ان اعلان روسيا الحرب الليفونية (١٥٥٨-١٥٨٣م) التي استمرت خمسة وعشرين سنة على الدول البلطيقية من اكبر الاخطاء التي واجهت القيصر الروسي ايفان الرابع لأنها ادت الى تدهور الاقتصاد الروسي ، وكان من اهم نتائجها خسارة روسيا وتبديد طموحاتها السياسية للسيطرة على بحر البلطيق ، والسبب في ذلك عدم اخلاص ووفاء القادة العسكريون

الروس الذين ساهموا في هذه الحرب وتركوا القيصر وانحازوا الى عدوه وازدادت كراهيتهم واستياؤهم من تعزير السياسة الاستبدادية للحكومة القيصرية المطلقة.

هوامش

(١) محمود سعيد عمران ، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ، منشورات دار النهضة العربية ، بيروت ، ٢٠٠٦، ص١٩٠-١٩١.

(*) ليتوانيا : امارة تقع على الساحل الجنوبي لبحر البلطيق بين نهر نيمان Neiman ونهر دفينا Dvina الغربي، وفي النصف الاول من القرن الثالث عشر تشكلت الامارة الليتوانية الاقطاعية، وتوسعت على حساب اراضي غربي روسيا والأراضي البيلاروسية والاوكرانية التي أضعفتها غزوات المغول والتتر حتى وصلت حدودها إلى موسكو والبحر الأسود في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، وشكلت مع بولندا اتحاداً اسمياً عام ١٣٨٤م الذي استمر اربعة قرون، ودخلت تحت السيطرة الروسية عام ١٧٩٥م.

للمزيد من التفاصيل ينظر: موسوعة القارات الجغرافية التاريخية، اوروبا، المجلد الرابع، منشورات دار الراتب، بيروت، ٢٠٠٨، ص٩٠.

(٢) ادوار بروي ، موسوعة تاريخ الحضارات العام ، ترجمة : يوسف اسعد داغر وفريد داغر ، ج٣، منشورات عويدات ، بيروت ، ١٩٨٦ ، ص٥٩٤؛ جورج فرنادسكي ، تاريخ روسيا، ترجمة : عبد الله سالم الزليتني، المكتب الوطني للبحث والتطوير، طرابلس، ٢٠٠٧ ، ص٩٨ ؛

Kirchner Walther, A History of Russia , New York,1874, PP. 36-37.

(٣) المستر أدجر ، تاريخ أوروبا الحديثة واثار حضارتها، مطبعة المعارف، القاهرة، ١٩٢٠ ، ص٢٢٩؛

Parmele Mary Platt, A short History of Russia, London,2005,PP.31-33; Stone ,David, A Military History of Russia from Ivan the Terrible to the War Chechnya , New York ,1968,P.6.

(٤) الكسييف كارتسوف ترويتسكي ، موجز الاتحاد السوفيتي، منشورات دار التقدم، موسكو، ١٩٧٤، ص٢٠.

(*) البويار : هم طبقة من الاقطاعيين في الدولة الروسية تمتعت بامتيازات كبيرة وسلطات ضخمة من خلال تقديمها الدعم العسكري لأمراء كييف ، ومنحت هذه الطبقة أعلى المناصب في الدولة من خلال مجلس الدوما وكانوا يقدمون النصائح الى دوق موسكو وحصلوا على منح ضخمة من الأراضي ، وكأعضاء في مجلس دوما البويار ، وكانوا المصدر الرئيسي للتشريع في كييف الروسية .

Perrie Maureen, The Cambridge History of Russia from Early Rus to 1689, Cambridge University Press , 2006 , P. 458.

(*)الاورطة الذهبية : كلمة مشتقة من اللفظة التركية (اوردو Orda) ومعناها المخيم ، اما وصفها بالذهبية فيرجع الى الخيمة ذات القبة التي كانت موشاة بالذهب.

Ostrogorsky George, History of The Byzantine State, Translated by Joan Hussey, Oxford University Press ,1968,P.494.

(٥) نادية جاسم كاظم الشمري ، الاحتلال المغولي لروسيا ١٢٣٧-١٤٨٠ م ، بحث منشور ، مجلة العلوم الانسانية ، جامعة بابل ، مج٢ ، ٢٠١٣، ص٩٥.

(٦) يبيفانوف فيدوسوف، تاريخ الاتحاد السوفيتي، ترجمة : خيري الضامن ونيقولا الطويل، منشورات دار التقدم ، موسكو، د.ت، ص ١٠٤ -١٠٥.

(٧) المستر أدجر ، المصدر السابق ، ص٢٢٩.

(٨) محمود عبد الرحمن، تاريخ القوقاز نسور الشيشان في مواجهة الدّب الروسي ، منشورات دار النفائس ، بيروت ، ١٩٩٩ ، ص٤٨-٤٩ .

(٩) هاشم صالح التكريتي ، قيام الدولة الروسية وبداية توسعها ، بغداد ، ٢٠١٥، ص١٠٢.

(*) الدفوريان : هم الفئة الدنيا من الاقطاعيين الملزمين بالخدمة العسكرية لدى الامراء وكبار البويار ، وقد ظهرت هذه الفئة منذ القرن الثاني عشر ، وأخذت بالتطور السريع بعد أن توحدت الأراضي الروسية في دولة واحدة واصبحت اهم سند لسلطة الامير الكبير في صراعه مع البويار.

N.L.Rubinshteyn, Dvoryanstvo STE, Tom5,Moskva,1964,str.19-26.

(١٠) هاشم صالح التكريتي، المصدر السابق ، ص١٠٢.

(***) كتاي غورد : هي المنطقة المتاخمة للكرملين في موسكو تدخل ضمنها الساحة الحمراء ، والتسمية على ما يبدو جاءت من كلمة (كيتا) التي تعني حزمة من العيدان كانت تستخدم لبناء التحصينات قبل ان يستخدم الحجر.

M.G. Rabinov, Kity –Gorod ,SIE,Tom 7, Moskva 1965,str.380-381.

(****) كانت قيمة دنكا نوفغورد ضعف قيمة الروبل المسكوفي ، وكان يرسم عليها فارس يحمل رمحاً ، والكلمة التي تعني رمحاً باللغة الروسية هي كوبيو ومن هنا جاءت تسمية الكوبيكا التي تعادل ١/١٠٠ من الروبل .

(١١) هاشم صالح التكريتي، المصدر السابق ، ص١٠٣.

(١٢) المصدر نفسه .

(13) Pares Bernard , A History of Russia , London,1962,P.129.

(14) Fennell , J. L . I . M.A., Prince A. M. Kurbsky's History of Ivan IV, Cambridge University Press,1965, P.9 .

(١٥) جورج فرنادسكي، المصدر السابق ، ص١٠٧ .

(16) Iarkson, Jesse, A History of Russia from the Ninth Century, Longmans,1961,P.117؛ Kochan Lionel, The Making of Modern Russia , Longon, 1962, PP.40-41.

(17) Jones Dorsey, Russia Aconcise History . Harrisburg Pensylvania , 1955, P.24.

(18) هاشم صالح التكريتي، المصدر السابق ، ص١٠٥.

(١٩) ول ديورانت ، قصة الحضارة ، ترجمة : محمّد علي أبو درّة ، ج٢٦، منشورات المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، بيروت ، ٢٠١٣ ، ص١٣-١٤.

(٢٠) ستيفن غراهام ، ايفان الرهيب أول القياصرة ، ترجمة : يوسف شلب الشام ، منشورات المعرفة ، دمشق ، ١٩٩٦ ، ص٤٠-٤١.

(*) البطريرك : هو اعلى لقب في الكنائس الأرثوذكسية ، بعد اعتناق روسيا المسيحية (٩٨٨-٩٨٩م) ترأس الكنيسة الارثوذكسية الروسية المطارنة الذين كانوا تابعين قانونياً لبطريرك القسطنطينية ، وكان من اهم نتائج سقوط الامبراطورية البيزنطية والنمو السريع لهيبة روسيا الى تشكيل الكنيسة الروسية المستقلة ، ثم الى انتخاب اول بطريرك في روسيا .

للمزيد من التفاصيل يراجع : بيبفانوف ، المصدر السابق، ص١٣٨ .

(٢١) جورج فرنادسكي، المصدر السابق ، ص١٠٦.

(٢٢) هاشم صالح التكريتي، المصدر السابق ، ص١٠٨.

(٢٣) جورج فرنادسكي، المصدر السابق ، ص١٠٧؛ ول ديورانت، المصدر السابق ، ص١٤.

(٢٤) محمود عبد الرحمن، المصدر السابق ، ص٤٧.

(٢٥) هاشم صالح التكريتي، المصدر السابق ، ص١٠٥-١٠٦.

(26) Florinsky Michael, Russia A History and An Interpretation, New York,1959,P.191

(٢٧) بيبفانوف ، المصدر السابق ، ص١١٤ .

(٢٨) وثيقة روسية مترجمة، بيبفانوف ، المصدر السابق ، ص١٢٠.

(٢٩) هاشم صالح التكريتي، روسيا ١٧٠٠-١٩١٤، بغداد ، د.ت ، ص١٠؛ بيبفانوف ، المصدر السابق ، ص١١٧ .

(٣٠) ول ديورانت، المصدر السابق ، ص١٤.

(٣١) جورج فرنادسكي، المصدر السابق ، ص١٠٨.

(*) دسياتينا : وحدة قياسية روسية لقياس مساحة الأرض في روسيا القيصرية تعادل(1.09) هكتار.

(٣٢) هاشم صالح التكريتي، قيام الدولة الروسية الحديثة وبداية توسعها ، ص١١٣.

(٣٣) ستيفن غراهام ، المصدر السابق ، ص ٧٧؛ بيبفانوف ، المصدر السابق ، ص١١٥ .

(**) وكيل الرئيس : هو الموظف الذي يقوم باعمال رئيس الديوان في مؤسسة مركزية ما ، أو الدائرة كما كانت تدعى عندئذ ، او باعمال ديوان القائد العسكري المحلي في المدن الكبيرة . اما الكاتب : هو مساعد الوكيل الذي يقوم بالأعمال الكتابية وبإدارة شؤون ديوان الدائرة . اما الرئيس : هو الشخص المنتخب او المعين من قبل الحكومة لتسيير شؤون الادارة المحلية وجباية الضرائب والمكوس التجارية ، وقد اطلقت كلمة الرئيس على رؤساء فصائل خيالة الدفوريان الملاكين العقاريين والمشاة القناصة ، ورؤساء فرق الحرس التي تقوم بحراسة المدن في الليل .

بيبفانوف ، المصدر السابق ، ص١١٦ .

(٣٤) سليم قبعين ، تاريخ آل رومانوف ، منشورات مؤسسة الهنداوي ، القاهرة ، ٢٠١٢، ص١٦؛

Hingley Ronald, The Tsars 1533-1917, New York ,1968,P.32.

بيبفانوف ، المصدر السابق، ص١١٦-١١٧ .

(٣٧) هاشم صالح التكريتي، قيام الدولة الروسية الحديثة وبداية توسعها ، ص١١١-١١٢؛ يبيفانوف ، المصدر السابق ، ص١١٥-١١٦.

(38) Chernov .V and Mazov .V, Moscow , Cambridge University Press,1965 , PP.28-34.

(٣٩) هاشم صالح التكريتي، قيام الدولة الروسية الحديثة وبداية توسعها ، ص١١٤-١١٥.

(٤٠) ستيفن غراهام ، المصدر السابق ، ص٨٢-٨٦.

(41) Pares , Bernard, op.cit.,PP.132-133.

(٤٢) ستيفن غراهام ، المصدر السابق ، ص٨٦-٨٧.

(٤٣) هاشم صالح التكريتي، قيام الدولة الروسية الحديثة وبداية توسعها ، ص١١٦-١١٧.

(44) Hingley Ronald , op.cit.,P.33.

(45) Fennell , J. L . I . M.A., op.cit.P.123.

(٤٦) كمال مظهر احمد ، دراسات في تاريخ ايران الحديث والمعاصر،مطبعة اركان، بغداد، ١٩٨٥، ص١٣.

(٤٧) يبيفانوف ، المصدر السابق، ص١٢٠-١٢٣.

(*) القوزاق : كلمة قوزاق أصلها مغولي ومعناها قطاع الطرق ، وأصل القوزاق عصابات انتقلت من الأنحاء الروسية التي خضعت لنفوذ قياصرة موسكو المطلق ونزلوا في سهول (الاستبس) ابتغاء التمتع بالحرية ، وكانوا يعيشون على النهب وقطع طريق القوافل التي تمر من تلك الجهات من روسيا ، ولذلك تدربوا على الفروسية والقتال ، وكان معظم نزولهم في وادي الدون ووادي الفولغا ، وبعد رحيل التتر زاد عددهم ، وظهر منهم طائفة جديدة على نهر الدنيبر، وقد كانوا دائما سبباً في اقلاق حكومة موسكو.

المستر ادجر ، المصدر السابق ، ص٢٢٨-٢٢٩؛

Vernadsky George , A History of Russia , Oxford University Press ,1951 ,P.61.

(٤٨) خليل اينالجيك ، تاريخ الدولة العثمانية من النشوء الى الانحدار ، ترجمة : محمد .م. الارناؤوط ، منشورات المدار الاسلامي ، بنغازي ، ٢٠٠٢ ، ص٦٣-٦٤ .

(٤٩) المصدر نفسه ، ص٦٥.

(٥٠) المستر ادجر ، المصدر السابق ، ص٢٢٨-٢٢٩.

(٥١) هاشم صالح التكريتي، قيام الدولة الروسية الحديثة وبداية توسعها ، ص١١٩.

(52) Lionel, Kochan,The Making of Modern Russia , London , 1962,P.51.

(53) Valyanskiy , Kalyuzhnyy , Tam zhe str.43.

(٥٤) الجامعة التجارية الهانسية Hanseatiqes Ligue : مؤلفة من مدن المانيا الشمالية الغربية وعلى رأسها لوبيك ، وكانت تشمل ايضا همبورغ وبربمن وكولون انشئت عام ١٢٤١م للدفاع عن مصالحها المشتركة ضد القرصان وازدهرت عدة قرون . للمزيد من التفاصيل ينظر : ستيفن غراهام ، المصدر السابق ، ص١٢٦.

(٥٥) المصدر نفسه ، ص١٢٧.

(٥٦) فرنادسكي، المصدر السابق ، ص١١٠-١١٣.

(57) Tikhomirov I Dmitriev, Tam zhestr.126.

(٥٨) بيبفانوف ، المصدر السابق، ص١٢٥.

(٥٩) ستيفن غراهام ، المصدر السابق ، ص١٣١-١٣٢.

(٦٠) هاشم صالح التكريتي، قيام الدولة الروسية الحديثة وبداية توسعها ، ص١٢١-١٢٢.

(٦١) ستيفن غراهام ، المصدر السابق ، ص١٣٣-١٣٤.

(62) Platonov , Sergey Fedorovich , Polnyy Kurs Lektsii Po Russkoy Istorii, Petrograd 1917 , Rukopis , str.107.

(63) Stone David , A Military History of Russia from Ivan the Terrible to the War Chechnya , New York ,1968, P.15.

(64) I bid , P.16.

(65) Kochan Lionel, op.cit., P.43.

(٦٦) أصيب القيصر الروسي ايفان الرابع في السابع من نيسان ١٥٥٣م بمرض وظن انه سيموت ، فوضع وصية يعهد فيها بالحكم من بعده الى ابنه الاول من أنستاسيا رومانوفنا دميتري ، وكان طفلا صغيرا ، وطلب من الامراء والبويار أداء القسم له ، لكن العديد منهم وفي مقدمتهم سلفستر واداشيف عضوي الرادا رفضوا ، لأن ذلك معناه أن أم دميتري أنستاسيا ستصبح وصية عليه، وبدأوا يخططون لأبعاد دميتري عن العرش وأسناده لأبن عمه أمير ستاريتسا قلاديمير اندرويفتش.

Pares , Bernard, op.cit.,PP.135-136.

(٦٧) بيبفانوف ، المصدر السابق، ص١٣٢-١٣٣.

(68) Clarkson, Jesse, op.cit.,PP.122-125.

(69) Pares , Bernard, op.cit.,P.137.

(٧٠) هاشم صالح التكريتي، قيام الدولة الروسية الحديثة وبداية توسعها ، ص١٢٥.

(71) Koretskiy , SIE, Tom 8, Moskva ,1965, str.307.

(٧٢) الأوبرتشنينا : كلمة روسية قديمة اطلقت على قوات القيصر ايفان الرابع من الدفوريان الذين تعهدوا للقيصر واقسموا بأنهم سيخدمون بإخلاص ويحاربون اعداءه ، وكانوا يرتدون بزة من قفطان اسود وقبعة ، والى جانبهم جعبة سهام ، وكانوا يحملون مكنسة ترمز الى استعدادهم لكنس الخيانة من الدولة الروسية في المدة ما بين (١٥٦٥-١٥٧٢م) كانت مهمتها الرئيسة معارضة الامراء والبويار .

Hingley Ronald, , op.cit.,PP.43-44.

(٧٣) الزيمشينا : تشمل كل اراضي الدولة الروسية ولا سيما الولايات الحدودية من الشمال والجنوب التي لم تدخل في الأوبريتشنينا ، وكانت كالسابق تدار من قبل دوما البويار برئاسة أميرين كانا يقدمان للقيصر تقارير دورية عن الشؤون العسكرية والقضايا المحلية المهمة . وشملت الزيمشينا بيرم وفياتكا وريزان في الشرق ، وبسكوف ونوفغورد في الغرب ، وسمولينسك في الجنوب الغربي.

جورج فرنادسكي ، المصدر السابق ، ص١١٢.

(٧٤) بيبفانوف ، المصدر السابق، ص١١٨.

(75) Catharine the Second, History of Ruussia from the foundation Monarchy by Rurik to the Accessiion of ,London, 1800, P.13.

(٧٦) ستيفن غراهام ، المصدر السابق ، ص١٣٣-١٣٤.

(77)Hingley Ronald, , op.cit.,PP.40--43.

(78)Kuskov Vladimir , A History of old Russian Literature , Translated from the Russian by Ronald Vroon , Moscow , 1977, PP.248-249.

(79)Pares Bernard, op.cit.,P.140.

(٨٠) هاشم صالح التكريتي، قيام الدولة الروسية الحديثة وبداية توسعها ، ص١٣٢.

(81)Hingley Ronald, , op.cit.,PP.56-57.

, (82)Dukes, Paul A History of Russia Medieval, Modern, Contemporary Fennell , J. L . I . M.A., Prince A. M. Kurbsky's, op.cit., ؛London,1974, P. 51 PP. 196-201 .

(٨٢) هاشم صالح التكريتي، قيام الدولة الروسية الحديثة وبداية توسعها ، ص١٣٣.

(٨٣) بيبفانوف ، المصدر السابق، ص١١٨.

(٨٤) فرنادسكي، المصدر السابق ، ص١١٢-١١٣؛

Clarkson, Jesse,op.cit., P.139.

Sources

First: Arabic books

•Edouard Brouy, Encyclopedia of the History of Civilizations, translated by Youssef Asaad Dagher and Fred Dagher, Oweidat Publications, vol. 2, Beirut, 1986.

•Ksyev, Kartsov Troitsky, Summary of the Soviet Union, Progress Dar, Moscow, 1974.

•Master Adjar,The History of Modern Europe and the Effects of its Civilization ,Al-Ma'aref Press, Cairo, 1920.

•George Fernandsky, History of Russia, translated by: Abdullah Salem Al-Zlitani National Research and Development Office, Tripoli, 2007.

•Khalil Enaljek, History of the Ottoman Empire from the Rise to the Decline. Arnaout، Al-Madar al-Islami, Benghazi-Libya, 2002.

•Stephen Graham, Ivan the Terrible The First Caesars, translated by: Yusuf Shalab Sham, Knowledge Publications, Damascus, 1996.

•Salim Qabain, History of the Romanovs, Hindawi Publishers, Cairo, 2012.

•Kamal Mazhar Ahmad Studies in the History of Modern and Contemporary Iran, Argan Press, Baghdad, 1985

•Mahmoud Abdel Rahman, History of the Caucasus Chechen Eagles in the Face of the Russian Bear, Dar al-Nafas Publishing House, Beirut, 1999.

•Mahmoud Said Omran: The History of Europe in the Middle Ages Dar al-Nahda al-Arabiya, Beirut, 2006.

•Hashem Saleh Al-Tikriti, Russia 1700-1914, Baghdad, N.D.

•Hashem Saleh al-Tikriti, the establishment of the Russian state and the beginning of its expansion, (Baghdad, 2015).

•Durant, The Story of Civilization, translated by Mohammed Ali Abu Durra, Vol.26, Beirut, 2013.
•Yevyvanov, Vidosov, History of the Soviet Union, translated by: Khairi Daman and Nicola Al-Tawil, Dar al-Takadom, Moscow,N.D.

Second: Magazines

Nadia Jassem Kadhim Al-Shammari, The Mongol occupation of Russia 1237-1480, published research, Journal of Human Sciences, University of Babylon, Vol. 2, 2013.

Third: Arabic Encyclopedias

Encyclopedia of Historical Geographical Continents, Europe, vol. IV, (Dar Al- Raal Publishers, Beirut, 2008.